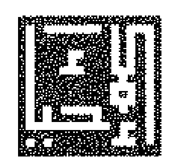
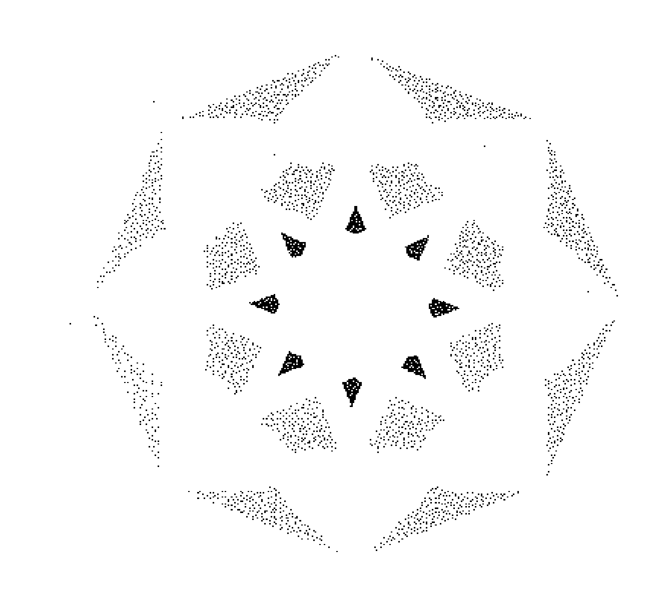


جمال البنا

التعددية في مجتمع إسلامي



دار الفكر الإسلامي

جمال البنا

التعددية في مجتمع إسلامي

دار الفكر الإسلامي
١٩٥ ش الجيش – ١١٢٧١ القاهرة – هاتف وفاكس: ٥٩٣٦٤٩٤
e.mail: gamal_albanna@infinity. com.eg
http: // www. islamiccall. org

جمال البنا
رئيس الاتحاد الإسلامى الدولى للعمل
مدير مؤسسة فوزية وجمال البنا
للثقافة والإعلام الإسلامي
رائد دعوة الاحياء الإسلامي

١٩٥ ش الجيش ١١٢٧١ - القاهرة - هاتف وفاكس ٥٩٣٦٤٩٤
e.mail: gamal_albanna@infinity.com.eg
http://www.islamiccall.org

مقدمة



والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

تصور البعض أنه لما كان الإسلام دين التوحيد، فإن التوحيد ينسحب على كل شيء فيه بما فى ذلك المجتمع ومظاهره وتجلياته من نظم وأوضاع وفنون وآداب وعادات وسلوك وأزياء الخ... فلا يوجد إلا نمط واحد فى كل مجال من هذه المجالات وهو ما يضع المجتمع الإسلامى فى قالب واحد لا يتغير ولا يتطور ولا يتعدد .

وقد يُذكر فى هذا الصدد "الوسطية" التى ينادى بها بعض المفكرين باعتبارها الموقف المختار للمجتمع الإسلامى تجاه التيارات المتعارضة يميناً، ويساراً، شرقاً وغرباً، وهو تكييف سليم، وقد نص عليه القرآن. فلم يقل القرآن "أمة التوحيد" ولكنه قال ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾. ولكن هذا نفسه لا ينفى التعددية، بل هو يثبتها لأن الوسطية تفترض وجود الإفراط والتفريط. التحلل والتزمت. الإسراف والتقتير الخ... ولا يمكن تصور وسطية حيوية بدون تعددية، وإلا تصبح هى الوسطية الرياضية التى تعنى التوسط بين نقطتين أو أنها تتجمد فى قالب واحد وتأخذ طابعا ثبوتيا، وهو ما يتنافى مع حيوية وديناميه الإسلام .

ويرى هذا البحث أن التوحيد في الإسلام إنما أريد به الله تعالى وحده، وأن سحب هذه الصفة (الواحدية) على غيره أمر لا يجوز، بل إنه قد يصبح شكلاً من أشكال الشرك. لأن الله تعالى قد تفرد بهذه الصفة، واضفائها على غيره شرك به. فتوحيد الله يستتبع تلقائيا التعددية فيما عداه .

ونحن في استخدامنا لهذه الطريقة إنما نتبع الأسلوب الفريد الذى صاغه الإسلام فى إثبات الوجوب بنفي ما عداه. والشاهد الأعظم على هذا هو "لا إله إلا الله" فهنا يثبت الإسلام وجود الله في الوقت نفسه الذى ينفى ما عداه ولو انه قال "الله موجود" هذه الصيغة وإن أثبتت وجود الله، ولكنها لا تنفي ضرورة ما عداه – أى أن يكون له أندادا – في حين أن "لا إله إلا الله" تثبت الله وتنفي ما عداه .

ومن هنا فإن لقب "دولة التوحيد" الذى يرسله البعض في اعتزاز وفخر ليس وصفا سليما من ناحيتيه، فالإسلام ليس دولة، وإنما هو[1] أمة، وهذه الأمة تأخذ بالتعددية لا بالواحدية كما لا يمكن أن يقال "دولة الفضيلة" لأن نصيب الدولة في إقامة الفضيلة أو تعزيزها تافه، بل قد يؤدى تدخل الدولة في هذا المجال إلى المساس به. والتعبير الصحيح هو "أمة العدل" لأن الإسلام بالنسبة للتجمع البشرى "أمة" ولأن طابعه الرئيسي في القيم الاجتماعية هو العدل .

وقد وضع الإسلام للمجتمع البشرى كيفية أوردها القرآن الكريم تقوم على تفاعل ركائز أو قوى. فهناك هداية الأنبياء التى تعين الإنسان على سلوك الطريق المستقيم، وهناك غواية الشياطين التى تلقى به في لجج الشهوات والشرور، وهناك الإنسان نفسه الذى يملك بما غرس الله فيه من عقل وفطرة أن يتجاوب مع هداية الأنبياء، كما يمكن – في حالات أخرى –

---

(١) ستكون هذه الإشارة موضوع الكتاب التالي من دفاتر الإحياء "الإسلام دين وأمة وليس دين ودولة .

أن يستسلم لغواية الشياطين بالتفصيل الذى سيرد فى هذا الكتاب، فالمجتمع البشرى له طبيعة تعددية .

والمجتمع الإسلامى لا يشذ نوعيا عن المجتمع البشرى، لأن الإنسان مسلما أو غير مسلم، له طبيعة واحدة، ولكن المجتمع الإسلامى يختلف فى الدرجة وليس فى الطبيعة، وفى بعض التجليات، وليس فى كلها، فلا جدال أن فى الإسلام قوة خاصة تكيف سلوك المؤمنين به، وفيه من الضمانات ما تحول دون الاستسلام الكامل للشهوات والشرور أو الانسياق وراء خطأ الشيطان. أو انتهاج السرف والشطط، ولكن هذه الضمانات قد لا تحول دون ممارسات أدنى من ذلك لأن للطبيعة البشرية – بعد كل شىء – حكمها وضعفها، ولأن الله تعالى عندما جبل النفس البشرية "ألهمها فجورها وتقواها"

وأى محاولة لفرض قالب واحد مصمت على المجتمع بدعوى التوحيد الإسلامى، أو حتى الوسطية الإسلامية، وأى تجاهل للعوامل العديدة التى تؤثر فى هذا المجتمع أو تقف فى وجه التعددية تكون محاولة محكوم عليها بالفشل بعد أن تستهلك وقتا وجهدا كان البناء الرشيد والقصد السديد أولى بهما وهذه هى قيمه المعرفة، إذ هى تميز ما بين الخطأ والصواب كما تهدينا إلى السبل الموصلة والوسائل الناجحة. فإذا لم تكن لدينا المعرفة بهذا كله تخبطنا وتوزعتنا الطرق وغلبت المماحكة أو غرتنا الأمانى وخدعنا السراب فنمضى طويلا دون أن نصل إلى شىء .

ولكى لا يحدث هذا وضعنا هذا الدفتر من دفاتر الإحياء، وأن يكون الثالث، بعد الحرية وتثوير القرآن هو ما يعبر عن الأهمية الكبيرة للموضوع فى الفهم السليم للإسلام ...

جمال البنا

القاهرة فى : أبريل ٢٠٠١
المحرم ١٤٢٢

الفصل الأول
توحيد الله يستتبع التعددية
في كل ما عداه

لم يصل دين من الأديان بتوحيد الله إلى الحد الذى وصل إليه الإسلام، وقد أهدرت اليهودية المعنى المطلق للتوحيد عندما جعلت الاهها الواحد إلها خاصا ببنى إسرائيل، ومن ثم فلا معنى للحديث عن التوحيد فى اليهودية. أما المسيحية فقد ألقت ظلالا كثيفة على الاهها الواحد بفكرة الأقانيم الثلاثة، فإذا أريد التوحيد بأجلى معانيه فليس إلا الإسلام .

فالله فى الإسلام هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفئا أحد. وقد أسهب القرآن الكريم فى عرض صفاته تعالى وكلها تصب فى هذا المعنى فهو الذى لا تدركه الأبصار وليس كمثله شىء. ونهى القرآن عن أن يضرب المؤمنون له الأمثال أو أن يجعلوا له أندادا لأنه لا مثيل له .

وقد أمل الفلاسفة القدامى أن يصلوا إلى الجوهر الفرد الذى لا يتجزأ، وظن بعضهم أنه يمكن الوصول إليه، وأنه سر الكون، ولكن هيهات فقد أثبت العلم الحديث أن ليس فى الموجودات والقوى والعناصر جوهر فرد أو عنصر لا يتجزأ فكل شىء يتجزأ إلى ما لانهاية، وكل جزء يرتبط

وينفصل عن بقية الأجزاء والجميع يدورون بانتظام أو بالتعبير المعجز ﴿كل في فلك يسبحون ﴾.

وعندما يتحدث القرآن الكريم عن الله الواحد الأحد فإنه يتحدى الإدراك الإنساني رغم ما يبدو من بساطته وبداهية فكرة الواحديه فما أن يفكر الإنسان حتى يعجز عن تصورها لأنه يعجز عن تصور كيان غير مركب من أجزاء وهو يتصور أنه إذا انتفت الأجزاء انتفى الكيان، ولا يوجد شيء، وليس إلا العدم ومن ثم فإما أن يكون مركبا من أجزاء وإما أن لا يكون، خاصة وأن القرآن يعزز ويعمق فكرة التوحيد وينزهها فنفى عنها كل شوائب التجسيد والتوثين، وأضفى عليها في الوقت نفسه الحياة والقوة والإدراك والحكمة والسمع والبصر و٩٩ اسما من الأسماء الحسنى بجانب الصفة الهامة التجريد ..

وعندما يقول الله تعالى عن نفسه إنه "الباقي" أو "الذى لا يموت" فإنه بالتبعية ينفي أن يكون لشيء أو مخلوق هذه الصفة– فكل ما نراه يتعرض للتغيير، وللموت وللفناء– ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾. والموت هو مصير الجميع في هذه الحياة الدنيا ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾. ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ﴾.

ولو قلنا إن هناك خالقا غير الله وباقيا غير الله لكان هذا شركا بالله وخروجا عن "التوحيد" الإسلامي لأنه يشرك أحدا فيما خص التوحيد الإسلامي الله تعالى – وحده – به .

وكذلك عندما يقول الله تعالى عن نفسه إنه الواحد الأحد. فمعنى هذا أن ليس في الكون أو المجتمع أحدية ولكن تعددية يمكن أن تصل إلى مئات وألوف الصور .

وقد ضل الفلاسفة وبعض الذين تحدثوا عن "وحدة الوجود"، ووهم الشعراء الذين تصوروا الله تعالى فى الشمس البازغة والزهرة اليانعة والجمال الإنسانى فهذه كلها من آيات الله فى الخلق فى أحسن تقويم، ولكنها ليست صفاته وأبعد منها أن تمس ذاته .

كما ضل كل من تصور أنه يمكن بحكم إيمانه وتفانيه فى حب الله تعالى أن يصل إلى درجة من القرب بالله توجد نوعا من التوحيد فهيهات أنا للإنسان أن يصل إلى هذا ولم يصل الرسول إلا إلى "قاب قوسين" من سدره المنتهى لأن ما بعد ذلك يخالف طبيعة التوحيد ويمكن أن يصل إلى حد الشرك .

وعندما يقول الله تعالى فى عشرات، أو مئات الآيات أنه الخالق، فانه ينفى بالتبعية أى خلق لغير الله تعالى ويصبح من ينسب قدرة الخلق إلى غير الله مشركا، وهو الذنب الوحيد الذى أعلن الله تعالى أنه لا يغفره إلا أن يتوب .

وهو لا يكتفى بهذا المعنى الضمنى، بل يعلنه مرارا وتكرارا فمن غير الله يخلق ؟ إن كل شيء عدا الله تعالى مخلوق ..

ووصل حرص الإسلام على إفراد الله تعالى وحده الخالق. أن حرم الإسلام فى المرحلة الأولى لظهوره التصوير ونحت التماثيل لأنها نوع من "الخلق" يمكن أن يؤدى إلى الوثنية، خاصة والعرب حديثو عهد بها. فجاء فى الحديث "من أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى فليخلقوا ذرة " .

ولا يجوز لأحد أن يقول عن سيده "ربى" ولكن سيدى كما لا يجوز للسيد أن يقول "عبدى" ولكن فتاى ..

ولا يجوز لأحد أن يتألى على الله فيقول مثلا "والله لا يغفر الله له"! فمن ذا يتألى على الله، ومن ذا يعلم ماذا سيفعل الله .

ورفض القرآن فكرة أن يعبد العرب أوثانا ﴿ليقربونا إلى الله زلفى﴾ وندد بالذين اتخذوا أحبارهم أربابا دون الله، وفسر الحديث ذلك بأن هؤلاء الأحبار كانوا يحللون ويحرمون، وهذه المهمة هي ما ينفرد بها الله تعالى فقيام الأحبار بها نوع من الشرك .

بل حتى الشفاعة، التي ليست إلا رجاء وسؤالا، لا يجوز إلا من أذن الله وبضوابط موضوعة- لأنه إذا عدمت هذه الضوابط فيمكن أن تتحول الشفاعة إلى الشرك أو أن تقارب الشرك .

من هذا نفهم إن ما تطرق إلى بعض الأذهان من وجود مجتمع إسلامي أحادي الطبيعة لأنه يدين بالتوحيد إنما هو لبس ووهم بل مفارقة لأن الإيمان بتوحيد الله يستتبع التعددية فيما سواه، وأن هذه التعددية تصبح أمرا لازما بحكم الواحدية الإلهية، لأنها تعد الضرورة المنطقية أمام الواحدية الإلهية حتى لا تتطرق إشارة من شرك لمعنى التوحيد الإلهي- وفي الوقت نفسه فإن الله تعالى هو الذي أراد هذه التعددية ووضع لها آلياتها حتى لا يتطرق الخلل إلى هذه التعددية وبهذا نجد التوحيد الخالص بالنسبة لله تعالي والتعددية المنضبطة بالنسبة للمجتمع .

الفصل الثاني
إشارات القرآن إلى التعددية

كل من يتصفح القرآن الكريم، ويتأمل سوره سورة سورة، يجد أنـــه بمقدار ما حرص على إبراز وتأييد التوحيد بالنسبة لله تعالى بقدر ما أبـــرز التعدديات فيما عداه .

بل إن القرآن نفسه كان من اكبر مصادر التعددية، ذلك لأن أســـلوبه المجازى وصياغته المتميزة للكلمة تجعل لها معانى متعددة، فما مـــن كلمـــة قرآنية أو آية إلا ويمكن تقديم عدد من التفاسير لها لأن القرآن أنـــزل لكـــل المسلمين فى كل العصور وكان سر الأعجاز القرآنى أن الكلمة القرآنية تتسع لتأويل يتفق مع مفاهيم العصر الحديث، كما تقبلتها مفاهيم العصر القديم. بـــل إن الأحكام (العقوبات) القرآنية نفسها التى يفترض فيها التحديـــد– صيغـــت بصورة عامة مما استوجب أن تقوم السنة بدور كبير فى "البيـــان" القرآنـــى، ونشأت عن هذا كله مجلدات التفاسير والحديث وما بنى عليـــهما مـــن فقـــه وسمح جو الحرية الأول بظهور المئات والألوف من التعدديات فى العقيـــدة والشريعة قبل أن ينغلق باب الاجتهاد .

فالقرآن نفسه يعد من أكبر مصادر التعددية، أو قل إنه الأصل في التعددية الإسلامية .

ويوضح لنا القرآن صورا من التعددية أبعد وأكثر مما يتصوره أنصارها.. فهذا الكوكب الأرضي الذى نعيش عليه ليس إلا وحدة صغيرة من ملايين أو حتى بلايين الكواكب تفصل ما بين الأرض وبينها مئات السنوات الضوئية، ويفوق بعضها الأرض حجما مرات عديدة، ومره أخرى فإن كل هذه الكواكب والمجرات التى يضمها الكون ليست إلا عالم "الشهادة"، وهناك عالم آخر يطلق عليه عالم الغيب.. يبدأ حيث ينتهى عالم الشهادة، وفى عالم الغيب هذا جنة ونار، وعذاب وثواب ..

وفى عالمنا الصغير – كوكب الأرض – تتعدد الأنهار والبحار ويختلف الليل والنهار وترتفع الجبال والهضاب وتنخفض السهول والوديان.. وهناك أنواع بمئات الألوف من الحشرات والطيور والنبات أما الإنسان نفسه فرغم أنه واحد يسير على قدمين فإنه متعدد الجنسيات والألوان والألسنة واللغات والأديان والمعتقدات فالكون الأرضى ومجتمعه الإنسانى أبعد ما يكون عن الواحدية .

واستبعد القرآن أن يكون الناس أمة واحدة ينتظمهم اتفاق ورأى إنهم مختلفون، وسيظلون مختلفين تميز بعضهم عن بعض ألوان البشرة ولغة اللسان والعقائد والانتماءات.. وأنهم فى الأمة الواحدة سلف.. وخلف.. يختلف بعضهم عن بعض وأعتبر من آيات الله ﴿اختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴾، وما أكثر مادة "اختلف" فى القرآن "اختلف– اختلفتم– اختلفوا– تختلفون– خلاف– اختلاف– مختلف" فهذه كلها تدل على مساحة واسعة للاختلاف وبالتالى التعددية ...

وإذا كان القرآن الكريم قد وصف أمة المسلمين إنها "واحدة" فهذا يعنى أنها واحدة فى عقيدتها ولكنه لا ينفى عناصر التميز والاختلاف والتنوع بين شعوب وفصائل هذه الأمة داخل الإطار الفسيح للعقيدة الواحدة

على إن القرآن الكريم لا يكتفى بهذه الإشارات العامة إلى التعددية ولكنه يقرنها بعدد من القواعد التى ترسى التعددية، ثم يصل إلى الغاية عندما يقرر التعددية الدينية وتعايش الأديان جنبا إلى جنب .

ومن القواعد التى ترسى التعددية فى القرآن الكريم :

١. النص على أن الله تعالى خلق كل شيء من زوجين، وبهذا نفى الواحدية من المجتمع وأثبت التعددية ابتداء من زوجين أو "أزواجا" بصيغة المجتمع .

- ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض﴾ . {٣٦ يس}
- ﴿والله خلقكم من تراب، ثم من نطفه ثم جعلكم أزواجا﴾ . {١١ فاطر}
- ﴿أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ . {٢٦ الشعراء}
- ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ . {٤٩ الذاريات}

فهنالك تعددية حتمية أدناها " الزوجية " ..

٢. تقرير مبدأ الدرجات بما يتضمنه ذلك من تفاوت، وبالتالى تعددية وقد استخدم القرآن كلمة "درجة" ليميز بها بين فئات من المؤمنين فقال ..

- ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة، وكلا وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما﴾ . {٩٥ النساء}

- ﴿ولكل درجات مما عملوا، وما ربك بغافل عما يعملون﴾ .

{١٢٣ الأنعام}

- ﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم﴾ . {١٦٥ الأنعام}

- ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾ . {٢٠ التوبة}

- ﴿ورفعنا بعضكم على بعض درجات﴾ . {٣٢ الزخرف}

وحتى بالنسبة للأنبياء ..

- ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله، ورفع بعضهم درجات ﴾ . {٢٥٣ البقرة}

٣. تقرير مبدأ استباق الخيرات، وجاء تصوير القرآن لهذا المبدأ متضمنا حرية انطلاق الأفراد من منطلقاتهم الخاصة ..

- ﴿ولكل وجهة هو موليها، فاستبقوا الخيرات ..﴾ . {١٤٨ البقرة}

- ﴿... ... لكل جعلنا منكم شرعه ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم، فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ . {٤٨ المائدة}

- ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه﴾ . {١٠٠ التوبة}

- ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم **سابق** بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾ .

{٣٢ فاطر}

- **سابقوا** إلى مغفرة من ربكم﴾ . {٢١ الحديد}

٤. تقرير مبدأ "التدافع" وهو أقوى من مبدأ استباق الخيرات، وقد جاء في سورتي البقرة والحج .

- ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض** لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ . {٢٥١ البقرة}

- ﴿إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض** لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها أسم الله كثيرا﴾ . {٣٩-٤٠ الحج}

وهذا المبدأ يصور المجتمع وفعالياته، والصراع ما بين الحق ودعاته والباطل وأشياعه. كما يشير إلى بعض تجليات التعددية في الصوامع والمساجد والصلوات والبيع ...

٥. شمول العطاء الإلهي ..

تحدث القرآن الكريم عن الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، أو الذين يستسلمون للمغريات، وتقبل هذا كأمر واقع بحكم الضعف البشري الذي يستولي على بعض الناس. وأوضح أن عطاء الله ليس محظورا عليهم، وأن حسابهم لا يكون في هذه الدنيا، وإنما في الآخرة ..

□ ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحوراً. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك **وما كان عطاء ربك محظوراً** ﴾ . {١٩ – ٢٠ الإسراء}

□ ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها، وما له في الآخرة من نصيب ﴾ . {٢٠ الشورى}

٦. تقرير مبدأ حرية الاعتقاد– ولعل تقرير القرآن لهذا المبدأ– أعظم دليل على تقرير التعددية في مبدأ هو صلب الأديان جميعاً : الاعتقاد، وجاء تقرير القرآن له صريحاً لا يقبل لبساً، وفي العديد من الآيات التي يضيق هذا الموجز عن استيعابها مثل :

□ ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ . { ٢٥٦ البقرة}

□ ﴿... فمن يهتدي فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾ . {١٠٨ يونس}

□ ﴿من اهتدى فإنما اهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ .{١٥ الإسراء}

□ ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ {٢٩ الكهف}

وأوضح القرآن أن الدعوة إلى الإسلام لا تستتبع قسراً أو إغراء.. أو حتى ما لابد وأن يساور نفس الداعية من أمل في الهداية وضيق بالرفض.. لأن الهداية من الله ودور الرسول هو البلاغ وليس له أن يأسى لرفض الرافضين .

□ ﴿ ليس عليك هداهم.. ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ . {٢٧٢ البقرة}

- ﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ . {٩٩-١٠٠ يونس}
- ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾. {٥٩ القصص}
- ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم أن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ . {٦ الكهف}
- ﴿أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى﴾ . {٥-٧ عبس}

٧. **تقرير القرآن أن الأصل فى الأشياء الحل، وفى الأعمال لاباحة، وهى وإن كانت صياغة فقهية إلا أنها مستقاة من الآية ...**

- ﴿كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه﴾ . {٩٣ آل عمران}
- ﴿وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا﴾ . {١٣ الجاثية}

كما أن ذلك هو مفهوم جعل التحريم والتحليل وقفا علـى الله تعـالى وحده فيما ينص عليه فى القرآن الكريم جليا وصريحا، ومثل هذه التحريمات معدودة ولا تمس الأصل الذى هو الحل، وما يعنيه من تعددية .

* * *

ويثبت تقرير القرآن لهذه القواعد، أن القرآن الكريم يتفهم المجتمع البشرى تفهما صحيحا وعميقا، ويحترم طبيعته، وأنه لم يـر هـذه الطبيعة جسما صلبا يستعصى على التطوير، كما أنه ليس جسما طريا تسير فيه سكين الإصلاح كما تسير فى قالب زبد.. وليس هو أيضا عجينة رخوة

هلامية، ليس لها قوام ويمكن تشكيلها حسب الإرادة أو الطلب. وإنما هو كيان معقد مركب متعدد يتفاعل بطريقته الخاصة، وله الطبيعة العضوية للجسم الإنساني الذى يكتسب وجوده وحياته من الأعضاء والدم والانسجه والأعصاب والعظام، كل منها يؤدى وظيفة محددة، وله الهيئة التي تمكنه من هذا وفى الوقت نفسه فإن عمل كل عضو من هذه الأعضاء يتلاقى ويتجاوب مع عمل بقية الأعضاء، وكلها تصب فى مجرى واحد وتستهدف غاية واحدة هى صحة الجسم الإنسانى وقيامه بمهامه نتيجة للتخصص الدقيق والتجاوب التلقائى بين كل هذه التخصصات، ويتم هذا بنعومة وسرعة تفوق فى بعض الحالات لمح البصر .

ويصدق هذا التصور على جسم كُل فرد من البلايين الذين يمثلون مجموع الجنس البشرى وفى الوقت نفسه فما من فرد من هذه البلايين يشبه الآخر شبها تاما فى كل شيء، وقد نجد عددا من الأخوة الأشقاء لأب وأم، وكل واحد منهم يختلف عن الآخر.. فبعضهم يرث صفات عن أمه، والبعض الآخر عن أبيه والبعض الثالث عن صفات مضموره فى الأعمام والأخوال والأجداد الخ... وما من واحد منهم له بصمة يد تشبه بصمة أخيه. فضلا عن الآثار الاجتماعية المكتسبة والمختلفة لكل واحد كحظه فى الزواج والعمل، والموقع الذى يعيش فيه والتعليم الذى ناله .

هذه هى صورة المجتمع البشرى، والقرآن الكريم الذى تنزل من لدن خالق هذا المجتمع. يعامل المجتمع تبعا لهذه الطبيعة .

وكان يجب أن تؤدى طريقة تعامله مع المجتمع البشرى وإشاراته المتكررة التى تصب فى بحيرة التعددية لجعل المجتمع الإسلامى مجتمعا تعدديا بمعنى الكلمة تزدهر فيه الآراء.. وتتلاقح الأفكار ويدلى كل واحد بدلوه، ويرفع كل واحد صوته،ولكن هذا لم يتحقق إلا فى بعض جوانب الحياة، ولفترة محدودة مما جعل الإنسان يتساءل كيف حدث هذا، ولماذا ...

لقد كانت الفترة الذهبية القصيرة فى تاريخ الإسلام هى الفترة النبوية والخلافة الراشدة، وقد حدثت فى مجتمع ساذج بسيط هو المجتمع ما بين مكة والمدينة فلم يتطلب تعددية كبيرة، ومع هذا فإن صحيفة الموادعة التى وضعها الرسول غداة قدومه المدينة، واعترفت باليهود جنبا إلى جنب الأنصار والمهاجرين واعتبرتهم "أمة واحدة" نموذج فريد فى تقبل التعددية على قدم المساواة وداخل إطار فسيح يضم مختلف الأعراق والديانات .

كما أن موقف الرسول من "المنافقين" الذين صرح القرآن بكفرهم، وعدم اتخاذ إجراء نحوهم، بل صلاة الرسول على جثة كبيرهم عبد الله بن أبى هى صورة نادرة من السماح بوجود الآخر.. وقبول ما يعلنه رغم أنه يضمر عكس ذلك الأمر الذى يضع مبدءا من أخطر المبادئ وأهمها هو أن المحاسبة تكون على الظاهر، أما باطن الإنسان، وما يقر فى أعماقه وبين جنبيه فيجب أن لا يكون موضوعا لبحث أو محاسبة، كما يجب ملاحظة أن إشارات القرآن الخاصة بحرية الاعتقاد كانت فى أصل سماحة الإسلام تجاه الأديان الأخرى وإقراره كل ذى دين على دينه على نقيض سياسة الدول الأوربية التى كانت تفرض على اليهود والمسلمين نبذ دياناتهم والإيمان بالمسيحية حتى مشارف العصر الحديث .

ولو استمر التقدم الحضارى للمجتمع الإسلامى، ولم يبتلى بما أوقفه، لكان من المحتمل أن تصل التعددية فى هذا المجتمع إلى مستوى قريب مما وصلت إليه التعددية فى المجتمع الأوربى لأن طبيعة التعددية تملى عليها ظهور التجليات العديدة للنفس البشرية حسنة أو سيئة، وصور الإغواء وإشباع الشهوات بمختلف الطرق، وسنرى التكييف "الشرعى" لمثل هذا الوجود فى مجتمع إسلامى طبقا لما يقرره القرآن، ولازدهرت الفنون والآداب ومشاركة المرأة فى حياة المجتمع، ولما فقد المجتمع جمالياته التى جعلته يشبه صحراء غبراء بلقع.. إن هذا التطور لم يحدث، فقد قضت عليها النظم الحاكمة الاستبدادية والتقليد الفقهى المغلق .

ويصور تطور الفقه الإسلامي هذه المأساة ففي فترة الازدهار طـوال القرون الثلاثة الأولى تعددت الاجتهادات تعدداً وصـل إلـى حـد البلبلـة، وتعددت، وتناقضت الأحكام في المدينة الواحدة وبقدر ما كان هذا يدل علـى درجة عالية من الحرية والخصوبة في الفكر، بقدر ما كان يتطلب نوعاً مـن التنظيم، ولكن هذا تأبى على المجتمع وقتئذ. فالتجأ الفقهاء إلى إغلاق بـاب الاجتهاد.. وكانت تلك بداية النفق المظلم الذى سار فيه الفكر الإسلامي قرابة عشرة قرون فقد تجمد الفقه، وحبس في قميص المنطق الصورى الأرسطي، وتجمد معه الفكر الإسلامي.. وشيئا فشيئا أصبح الفقهاء هم رجـال القـانون الذين يحفظون النظام القائم ويعبرون عن سياساته، وبذلـك فقـد المجتمـع الإسلامي حريته الفكرية بعد أن فقد حريته السياسية .

والحرية هي أم التعددية فإذا لم تعد حرية فليس هناك تعددية

ومع هذا فإن المجتمع الإسلامي بحكـم الحيويـة الفائقـة للإسـلام والروح الثورية والتحررية للقرآن، لم يفقد صوراً عديدة "للتعددية" فظهر فـي العصر العباسي في بغداد ما لم يظهر في روما من التعددية الفكرية ما بيـن الإلحاد (أو الزندقة كما كانوا يقولون) حتى التزمت فظهرت الطرق الصوفيـة وازدهرت بينما انتعشت دعوة "إخوان الصفا" الغامضة المتحـررة ووجـدت من الملل والنحل ما ملأ كتاب ابن حزم والشهرستاني، وما يصعب تصـوره الآن، وقرأنا عن ندوات تجمع الصوفي، والملحد والمتكلم والفقيه لا يرفـض أى واحد منهم الآخر، ولكن يكله إلى خالقه .

أما في القضية الحساسة "المرأة" التي كان يمكن أن تكون أصلاً لعـدد كبير من التعدديات فإن إشارات القرآن إلى تحريرها ومساواتها، وممارسـات الرسول المتعاطفة مع المرأة. لم تنجح كلها في اقتلاع "حمية الجاهلية" التـي انتقلت من العهد الجاهلي حتى العصور التالية.. وكان المجتمع الجاهلي الذى

يقوم على النهب والسلب لا يعترف بالمرأة لأنها لا تحارب ولا تأتى بغنيمة وترسب هذا المعنى فى نفسية المسلمين حتى بعد أن تغير المناخ الاجتماعى فى بغداد، وقد حل هذا المجتمع مشكلة المرأة باتخاذ الإماء (الجوارى) والقيان والسماح لهن بأداء دور يكسر حدة إبعاد المرأة عن الحياة وحجبها فى البيوت بحيث سمح هذا التطور بظهور صور من المجتمع المختلط وإن لم تكن الصورة سليمة ..

* * *

فإذا كان انعدام التعددية فى المجتمعات الإسلامية إنما يعود بالدرجة الأولى إلى فقد هذه المجتمعات لحرياتها السياسية والفكرية، وليس إلى سبب أصولى فى الإسلام فإن استعادة هذه الحرية يمكن أن تحقق التعددية، وتلك هى المشكلة التى يكون على المجتمع الإسلامى الحديث أن يجابهها بقوة، ذلك أن الألفة الطويلة لعهود الانغلاق كادت تطمس الإشارات المتكررة للقرآن الكريم عن الحريات والتعدديات خاصة بعد أن قام المفسرون بتأويلها تأويلات تميل بها عن هدفها كما حدث بالنسبة لحرية الاعتقاد يدل على ذلك متابعة المفكرين الإسلاميين المحدثين لما ذهب إليه الفقهاء القدامى من تطبيق حد الردة على كل من أنكر معلوما من الدين بالضرورة، إذا رفض الاستتابة، وهو نص مناقض لكل آيات حرية الاعتقاد فى القرآن الكريم التى عرضنا لها، بل ومناقض لسلوك وعمل الرسول الذى لم يحدث أبدا أن أوقع حدا لمجرد تغيير الدين، وإنما ضم إلى ذلك مقاومة الدولة والتخلى عن الجماعة والانحياز إلى الأعداء ..

وهو ما يدل على ضرورة معالجة القضية فى صورتها التى يمكن أن تأخذها عمليا معالجة لا تخشى المصارحة بل تقوم على المجابهة ...

الفصل الثالث

تقرير تعددية الأديان

يصل القرآن إلى الغاية فى التعددية عندما يقرر – وهو الذى يختلف عن المسيحية واليهودية وبقية الأديان الأخرى – قبول وجود هذه الأديان والتعايش معها ..

وهذا الموقف الفريد – لأننا لا نعلم مثيلا له بين الديانات الأخرى – يعود إلى سببين أولهما تاريخى وثانيهما موضوعى .

أما السبب التاريخى فإنه يعود إلى النشأة التاريخية للديانات السماوية الثلاث: اليهودية، والمسيحية، والإسلام .

فكما هو معروف فقد ولد سيدنا إبراهيم فى العراق وعاش ردحا من الدهر فى "أور" "الكلدانية" ثم تنقل ما بين مصر وفلسطين حتى مات ودفن فى بئر سبع .

وكانت زوجة إبراهيم "سارة" عاقرا فدفعت بسيدة جاءت بها من مصر هى هاجر إليه ليتزوجها عسى أن تلد له ولدا. وهذا ما حدث فقد ولدت له هاجر بكر أبنائه "إسماعيل" وتملك الغيظ والغيرة سارة، ودفعت

زوجها لأن يبعد هاجر وأبنها عنها. فأخذهما إلى الحجاز وأودعهما ذلك المكان الذى سيصبح أقدس الأماكن، وتركهما. وبعد فترة أشتد العطش بها وبطفلها، وأخذت تروح وتجئ بحثا عن المياه حتى عثرت على بئر زمزم فارتوت، ولاذ بالبئر نفر من العرب، ونشأ إسماعيل معهم وتزوج منهم وأصبح رأس العرب العدنانيين الذى سيولد منهم رسول الإسلام العظيم محمد بن عبد الله .

وقد لا يفهم الإنسان الحكمة فى هذه العملية كلها، وقد يستشعر غيظا من سارة التى أصرت على إبعاد هاجر وإبراهيم الذى أطاعها، ولكنهما كانا مسيرين بإرادة الله وبعنايته الذى شاء أن يستقل هذا الفرع من أسرة إبراهيم بدين هو الإسلام.. وبشعب هو العرب .

ولنعد إلى السياق فبعد أن عاد إبراهيم إلى موطنه أوحى إليه الله تعالى أن سيرزق من سارة العجوز بابنين هما أسحق، ثم يعقوب .

ومن يعقوب الذى يطلق عليه إسرائيل جاءت الأسباط التى كونت شعب بنى إسرائيل وتكرر بالنسبة ليعقوب ما حدث بالنسبة لإبراهيم فقد وقعت المجاعة المجاعة بديارهم وأرسل يعقوب بعض أبنائه إلى مصر ليمتاروا منها وغار الأبناء من أخيهم الصغير يوسف الذى كان والده يؤثره بالحب.. فتآمروا عليه وباعوه بدورهم لأحد حكام مصر .

وظفر يوسف باحترام الحاكم عندما فسر له حلمه المشهور عن سبع بقرات عجاف تأكل سبع بقرات سمان. بأن سيحدث فى البلاد قحط يستمر سبع سنوات.. وعينه مديرا لخطة مقاومة القحط .

وعندما جاء للمرة الثانية – أخوته – عرفهم بنفسه وطلب منهم إحضار الأسرة كلها فجاءوا وأقاموا فى إحدى مناطق الشرقية بالوجه

البحرى، وأمضوا أجيالا عديدة تكاثروا فيها حتى ضـاق بـهم المصريـون فاستعبدوهم وشغلوهم فى بناء المعابد (وهذا لا ينطبق على الأهرام لأنه جـاء بعد الأهرام بمئات، وربما آلاف السنين) حتى ظهر منهم موسى الذى تربـى فى بيت فرعون ونشأ كنبيل مصرى ولكنه تبنى قضية بنى إسرائيل ودخـل فى صراع مع فرعون وأيده الله وجعله نبيا وكتب له النصر علـى فرعـون بحيث خرجوا من مصر "بيت العبودية" فذهبوا إلـى فلسـطين "ليسـتعبدوا" الفلسطينيين وتوالت الأجيال حتى ظهر فيهم عيسى السيد المسيح الـذى أراد هداية خراف بنى إسرائيل الضالة فانقلبوا عليه وتوصلـوا إلـى محاكمتـه، وصلبه "وما صلبوه.. ولكن شبه لهم" .

وبعد قرابة ستة قرون من ظهور المسيحية أذن الله تعـالى بظـهور الإسلام على يد محمد بن عبد الله وهو سليل إسماعيل بن إبراهيم .

وكادت القضية تتكرر عندما أهدى المقوقس للرسول مارية المصرية القبطية، وعندما أنجبت من الرسول وولدت له إبراهيم.. ولكن الله تعالى لـم يشأ لإبراهيم أن يعيش فمات طفلا .

وهكذا نجد أن الديانات الثلاث نشأت عن أب واحد، وهو ما يجعلنـا نفهم كلمة الرسول عن الأنبياء أنهم "أبناء علات" أبوهم واحد وأمهاتهم شتى، وارتبطت تاريخيا وجغرافيا بمكان وزمان متقارب قبل أن يتفرغ كـل ديـن ويذهب إلى قارات الأرض، وكان يفترض أن تكون العلاقة بينهم كالعلاقة ما بين الأخوة، ولكن سنة كل دين ضاقوا بالدين الآخر.. وساد الجميع نوع من الفتور، إن لم يكن العداء.. وكانت العلاقة على أسوئها ما بين المسيحيين مـن ناحية واليهود والمسلمين من ناحية أخرى، وكانت علـى أخفـها مـا بيـن المسلمين من ناحية والمسيحيين واليهود من ناحية أخرى، ذلك لأن الإسـلام كان عليه كآخر الأديان أن يحدد الموقف بالنسبة للأديان التى سبقته فوضـع

مبدأ القبول لكل الأديان، وحرية أصحاب كل دين فى ممارسة دينهم دون أى تقييد، وتطبيقا لهذا المبدأ ظفر المسيحيون واليهود بالحرية الدينية الكاملة .

ويغلب أن تدق الحكمة الإلهية فى الطريقة التى ظهرت بها الأديان الثلاثة، والسياق الذى أخذته فى حين أن إنعام النظر يمكن أن يكشف فى كل حركة منها حكمة فقد شاء الله تعالى أن يظهر إبراهيم فى الجناح الأيسر فى المنطقة العربية. ويغرس دينه فيها، ثم أراد الله أن يسكن أحفاده فى مصر ليظهر موسى ويعلن اليهودية ويقود بنى إسرائيل إلى فلسطين ليظهر فيها بعد عدة قرون المسيح ويعلن المسيحية.. وبعد عدة قرون أخرى أعلن محمد بن عبد الله – سليل إسماعيل الذى أبعد إلى الحجاز – الإسلام .

ولا جدال أن فى إرادة الله تعالى وجود الأديان الثلاثة جنبا إلى جنب حكمة كبيرة فقد أراد لها أن تتحد فى الأب وتختلف فى الأم فتكون "أبناء علات" كما قال الرسول ليتحقق فيها عنصر من الوحدة وعنصر أخر من التميز كما لم يشأ أن ينفرد واحد منها بالبشرية، فهذا يتعارض مع التعددية التى هى فى طبيعة المجتمع البشرى، وما لا يكون هناك مفر منه، وعادة ما يفضل الأب أن يكون لأبنه الواحد أخ يلاعبه ويكسر فيه حدة الاحتكار ويحقق كل ما فى "التجمع" من مزايا سواء كانت فى العاطفة أو فى الإضافة، التى يضعها الثانى إلى الأول والثالث إلى الثانى .

فوجود أديان ثلاثة التى هى الحد الأدنى للجمع، واتصاف كل منها بمعالم مميزة يمثل تعددية "الأسرة" التى تعرف أبناءها قواعد التعامل والأخذ والعطاء وما يكون لها وما يكون لغيرها. وأداب الائتلاف والاختلاف وأن يكمل ما لدى الواحد ما ينقص الآخر. فاليهودية بتوحيدها الصلد، والمسيحية بمحبتها والإسلام بعدله. كلها تمثل التكامل المطلوب فى عالم القيم .

إن التكييف الإسلامى لهذه الدرجة من تعدد الديانات على أساس التعايش والتسامح والتكامل لهو أفضل الخيارات فهو أفضل من وجود دين

واحد فحسب لن يتجاوب مع الطبيعة البشرية، ويحرم من مزايـــا المنافســة ووشائج القربى في وقت واحد. وهو أفضل من وجود عشرات الأديان الـذى يؤدى إلى التفتت.وقيام العلاقات التي توجدها التعددية على أساس الســماحة تمثل العطاء والتكامل وهو الوضع الأصولى لأنها كلها تبتهل إلى إله واحــد وتنادى بقيم الحب والخير والعدل وما الذى يدفع دينا منها لأن يتكاثر علـــى حساب الآخر وفى كل دين مئات الملايين ولكل ديـــن نكهتــه وضرورتــه وإضافته إلى الحضارة "لكم دينكم ولى دين" .

إن الدين هو البيت الكبير الذى يضم على الأقل وما نحــن بصــدده، الأديان الأخوة "اليهودية والمسيحية والإسلام" الثلاثة، وأن يكون لكل واحــد منها دور فيه يمثل قدرا من استقلال داخل الإطار الواحد، وأن يحــب كــل واحد نفسه وأبناءه لا يعنى بالضرورة أن يكـــره أخويــه وأبناءهمــا أو ألا يخصهم بجانب من الحب لأن الحب يتسع للجميع ويسعد به الجميع .

ووجود أخوة ثلاث فى البيت أفضل من أن يستأثر واحـــد فحســب بالبيت، لأنه وإن كان البيت سيصبح خالصا له، فسيكون عليه مسئولية القيـام بنفقاته وأعبائه ثم يمكن أن يقع فى مزالق "المنفرد" الـــذى تتملكــه الأثــرة والأنانية، ولا يجد شريكا يكبح جماحه ويتحمل معه الخسارة. أما الربح فــإن استخدام العقل واستلهام القلب يضاعفه ويجعله أكثر مما كان يمكـــن للفــرد وحده أن يصل إليه .

* * *

هذا عن السبب التاريخى ..

أما السبب الموضوعى لتقرير الإسلام تعددية الأديان، فإنه يعود إلــى تكييف الإسلام لفكرة "الله" باعتباره خالق الكون بأسره، والوجود كلـــه. فــى حين أنه فى الفلسفة كان مجرد "فرض لحل سلسلة الخلق" دون أن يتضمـــن

هذا الفرض بالضرورة خصائص الحياة والفعالية والمقدرة الخ.. كما انه في الأديان الأخرى كان إلها محليا، للمصريين أو البابليين أو بني إسرائيل، بينما ألقت عليه الوثنية باوضار ولوثات تصوراتها الفجة والبدائية، إن "الله" في الإسلام هو خالق الكون بأسره وجابل البشرية، وأصل القيم العليا من حكمة وقدرة وعدل وخير وسلام الخ.. وواضع النظم التى يسير عليها الكون كما يسير عليها المجتمع البشرى، وهو الذى أنزل الديانات كلها من لدن آدم حتى محمد، بما فى ذلك رسل وديانات لم يقصص علينا القرآن أنباءهم. فما دام الأمر كذلك فلا يفترض أن يكون فى تعددية الأديان تناقض أو تنافر لأنه تعالى هو الذى أنزلها ولأنه يرسل الرسل وينزل الديانات تبعا لحاجات البشرية المتفاوتة والمتعددة حسب الأزمان والعصور والأجناس والملابسات التى تتحكم فى كل جنس وشعب. وهذه الأديان كلها تؤثر، وتتأثر بأوضاع مجتمعها، ولا يستشعر القرآن حرجا أو حساسية في ذلك لأن كل شئ من خلق الله.. فلن يكن فرار من قدر الله إلا إلى قدر الله، وعندما سئل الرسول "أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نقيها هل ترد من قدر الله فقال هى من قدر الله" ولأن الله تعالى وضع أصولا ومبادئ تحكم المجتمع. وفى الوقت الذى لا يمكن أن يغيب مثقال ذرة في هذا الكون اللانهائى عن علم الله. فإن الإنسان ليعطى نفسه أهمية قد لا تكون له إذا تصور أن الله تعالى ليس لديه عمل إلا متابعته، فأين هو من ملك الله ..

من هنا فإن منطق الخطأ والصواب لا يمكن أن يطبق على الأديان. فكل دين يمثل إحدى احتياجات البشرية. ولإختلافها يعود إلى إختلاف الاحتياجات والملابسات والعصور والبيئات .

وليس هناك حساسية فى القول بأن الأديان، وأن كانت منزلة من الله فإنها تصبح "ظاهرة اجتماعية" عندما يتعامل الناس معها. الأمر الذى أشار إليه القرآن عندما تحدث عن غلبة الأهواء التى تحرف الكلم عن حقيقته

وآثار مر الغداة وكر العشي وتوالي القرون وكيف تقسو القلوب عندما يطول عليها الأمد وتتجمد المشاعر والعواطف أو تتقولب الخ..

يجب أذن التفريق بين ما جاء في القرآن الكريم الذي هو التعبير الحقيقي عن الإسلام. وبين ما ينتهي إليه رجال الدين في كل عصر وأوان من فهم لحقيقة الرسالات الإلهية لأن هذا الفهم لابد وأن يتأثر برواسب فكر هذه المجتمعات. وقصور الإدراك البشري وغلبة المصلحة والذاتية على نفوس الذين يتحدثون باسم الأديان ويرون أنفسهم حراسها وحفظتها وما يسلك إليهم مع احتكارهم لتمثيل الدين من انحرافات .

وهذه الظواهر توجد في كل المجتمعات ويتأثر بها رجال الدين من مسلمين أو مسيحيين أو بوذيين الخ.. وهي السر فيما يصدره رجال الدين من أحكام ينسبونها إلى الدين .

وموقف الإسلام الذي جلاه القرآن الكريم واضح دون خفاء، وقد كرره القرآن مرارا وتكرارا في عديد من الأيات. أن الله تعالى أراد هذه التعددية الدينية، بما تتضمنه من اختلافات لا مناص عنها بحكم ما أرسله الله من أسس يسير عليها المجتمع. ولما كان الاختلاف ليس فحسب واردا، بل هو مطلوب، فإن الله تعالى خص نفسه بالفصل فيما كانوا فيه يختلفون يوم القيامة .

وبهذا حسم القرآن شأفة الخلاف، وحرم على كل فريق أن يدعي الأفضلية وان يرى أن الآخرين ليسوا على شئ، ولأن يدعي الجنة لنفسه والنار للمخالفين فهذا ليس من حقه، وفيه أفتيات وتألي على حق الله تعالى، وأن هذا كله "أماني" يصدر عنها كل فريق من منطلق ذاتي والأمر ليس بأماني المسلمين أو أهل الكتاب أو غيرهم ..

وحكمة الله تعالى فى هذا كله أن الأديان رغم اختلافها تنتهى كلها إلى حقيقة واحدة هى الألوهية فالاختلافات لا تنال الجوهر – كما يبدو لبعض الذين يحول استغراقهم فى أنفسهم دون فهم الآخرين. فالملايين فى أوربا وأمريكا الذين يقولون "أبانا الذى فى السماء" لا يفهمون منه إلا ما يفهمه المسلمون من حديث "الناس عيال الله" ومن المؤكد أنهم لا يفهمون، ولا يعنون بالأقانيم الثلاثة وعلاقة كل واحد بالآخر، أما التعميد فى المياه، أو تناول القربان فليس إلا طقوس وتقاليد لا تضر، وقد تفيد، وفى هذه الدول التى لا تؤمن بالإسلام يعمل الناس بجد وإخلاص ولديهم الصدق فى القول والإتقان فى الأداء والوفاء بالعهود والخلق الحسن، كما يعد كذب الساسة فيما يدلون به من وقائع أو بيانات أمام القضاء أو مؤسسات الدولة جريمة كبرى قد لا يكفر عنها إلا بالاستقالة كما حدث بالنسبة لنيكسون الذى أتهم بالتجسس على خصومه السياسيين وللرئيس كلينتون بالنسبة لعلاقته بإحدى موظفات البيت الأبيض، وقد تعرض للوم والتقريع ودفع غرامة كبيرة والحرمان من ممارسة المحاماة لمدة خمس سنوات فى حين أن معظم قادة الدول الإسلامية ليس لهم من كلام إلا الكذب والتزييف وليس لهم من عمل إلا الاستبداد والتحكم، وبهذا فإن المجتمعات الأوربية قد تكون أقرب إلى الله، وإلى المثل والقيم الإسلامية، من عديد من المجتمعات التى تدعى الإسلام .

أذكر أنى كنت فى شتاء عام ١٩٤٨ فى معتقل الطور مع الإخوان المسلمين الذين اعتقلوا بعد الحل الأول للإخوان. وكان المعتقل الذى غرس وسط الصحراء القاحلة يبدو ليلا متلألئ الأضواء بفضل المصابيح الكهربائية التى أقامتها إدارة المعتقل لغرض الحراسة وبفضل ما توصل إليه الإخوان خاصة الكهربائيين منهم من استخدامات للطاقة الكهربائية فى تسخين المياه للاستحمام والغسل والطهى الخ.. وكنت أقول للإخوان إلا تظنون أن الله تعالى سيدخل "أديسن" الجنة، بعد أن أتاح للبشرية كل هذه الأنوار فيردون بقوة "كلا أنه لم يؤمن بالله ولا الرسول" وكأنهم تصوروا أن الإسلام ظهر فى أمريكا وأن الرسول دعا أديسن والأمريكيين إلى الإسلام فرفضوا .

وكنت أرد عليهم – صدق الله ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائـــن رحمـــة ربى إذا لأمسكتم خشية الأنفاق وكان الإنسان قتورا ﴾ .

وقد آن للدعاة الإسلاميين أن يعلموا أنه ليـــس مطلوبـــا منـــهم، أن يكسبوا للإسلام مؤمنين بأديان أخرى، وليس من حقـــهم أن يحكمـــوا علـــى الآخرين بالنار كأن مفاتيح الجنة والنار فى أيديهم. أن هذا منتهى الأفتيـــات والتألى بل الوقاح، فى حق الله تعالى. أن كل ما طلبه القرآن – بعد أن قـــال ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم[1] ﴾. هـــو أن يكونوا "شهداء على الناس" ويقتضى هذا أن يعرفوهم على الإســـلام ثـــم يتركوهم لأنفسهم لأن تغيير الدين ليس مسألة إيمان قلبى ونظـــرى فحســـب، ولكنه يتطلب تعقيدات اجتماعية وترتيبات في الميراث وغيره، ولأن الهدايـــة من الله وليست من الرسول ..

ولكن يبدو أن كل هذا لم يفهم من المسلمين المعاصرين، ولم تؤثـــر فى أحكامهم وتصوراتهم أو فى النزعة الدفينة فى نفوس بعضهم، فقد قـــرأت عددا خاصا من مجلة التوحيد عن التعددية حاول أن يطرح هذه القضية بكـــل إخلاص وعمق ورغبة فى التوصل إلى الحقيقة، ومع هذا فإن التيار الفكـــرى الكاسح الذى يسيطر على الفكر الدينى جعل محور المعالجـــة يـــدور حـــول أمرين :

الأول: هل يمكن قبول تعدد الأديان، وهلا يعنى هذا خطـــأ البعـــض وصواب الآخر ..

والثاني: ما هو مصير الذين لا يؤمنون بالإسلام يوم القيامـــة وهـــل سيكون مصيرهم إلى النار [2] ..

---

(١) أنظر شرحها فيما سيلى ..

(٢) مجلة التوحيد السنة التاسعة عشر خريف ١٤٢١ – ٢٠٠٠ طهران – قم – أنظـــر ص ١٥ – والعدد كله عن التعددية .

ثم لا يقفون عند هذا، ولكنهم يقطعون بانهم فى الجنة وأن مخالفيهم فى النار[1] .

وأى جرأة على الله مثل هذه الجرأة وهل يملكون هم مفاتيح النار أو يقدرون على زج الناس فيها.. وعلى أى أساس بنوا هذه النتيجة الفاسدة وأين هم من رحمة الله التى لا تحد، والتى تثيب بسبعمائة ضعف ولا تعد رحمة الأم بأبنائها إلا جزء من مائة جزء هى رحمة الله.. وفى النهاية قد لا يزج فى النار إلا بالمارد المتمرد، كما جاء فى أثر كريم. سنشير إليه فى فقرة تالية ..

وقد عالج هذا الموضوع معالجة وافية فقيه أزهرى مجدد لم يظفر بالشهرة التى كان يستحقها هو الشيخ عبد المتعال الصعيدى رحمه الله فى كتابه "حرية الفكر فى الإسلام" الذى ظهر فى أربعينات القرن العشرين، وسنعرض هنا للفقرة التى كتبها على طولها لتتضح الصورة .

فتحت العنوان الفرعى "رأى الجاحظ والعنبرى فى عذر غير المعاند فى الحق" قال الشيخ عبد المتعال الصعيدى ..

"وهناك فريق آخر على رأسه الجاحظ والعنبرى من أئمة المعتزلة يرى أنه لا إثم على المجتهد مطلقا، وإنما الإثم على المعاند فقط، وهو الذى **يعرف الحق ولا يؤمن به عنادا واستكبارا، فالمجتهد المخطئ عند هذا الفريق غير آثم، ولو أداه اجتهاده إلى الكفر الصريح، لأن تكليفه عندهم بنقيض اجتهاده تكليف بما لا يطاق، والتكليف بما لا يطاق ممتنع شرعا وعقلا، وقد أجاب الجمهور عن هذا بأن التكليف بما لا يطاق ممكن غير ممتنع عقلا ولا عادة، فلا يكون من المستحيل فى شئ، وفى هذا الجواب**

---

(١) فإذا قيل أن الله تعالى قد قضى بالجحيم لفئات من الناس قلنا إنه ليس لنا أن نعين هذه الفئات أو نزعم أن أشخاصا معينين يدخلون فيها .

من الضعف ما هو ظاهر، لأن الله تعالى يقول: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾. {٢٨٦ البقرة} فهو ممتنع شرعا وعقلا .

ولا شك أن مذهب هذا الفريق ظاهر في نفي الإثم مطلقا عن المجتهد المخطئ بمقتضى دليلهم السابق، ولكن بعض المتكلفين رأى متطفلا عليه أن يقيده ببعض المسائل الخلافية بين الفرق الإسلامية، مثل نفي رؤية الباري تعالى، ومثل القول بخلق القرآن، فلا يدخل فيه ما هو من الكفر الصريح، ولكن هذا خلاف مذهب هذا الفريق كما هو ظاهر .

وقد استدل الجمهور لمذهبهم بإجماع المسلمين قبل ظهور هذا الفريق على وجوب قتال الكفار مطلقا، وعلى أنهم من أهل النار مطلقا، وهذا من غير فرق بين معاند منهم وغير معاند، ولو كانوا غير آثمين لما ساغ قتالهم، ولما كانوا من أهل النار أيضا .

والشق الأول من دليل الجمهور مبني على مذهبهم في وجوب قتال الكفار على كفرهم، وقد ثبت في عصرنا بطلان هذا المذهب، لقوله تعالى ﴿لا إكراه في الدين﴾ {٢٥٦ البقرة} وكل آيات القتال في القرآن ظاهر في أن **قتالنا للكفار مسبوق بقتالهم لنا، فنحن نقاتلهم على قتالهم لنا، لا على كفرهم، وقد بينت هذا في بعض كتبي، وبينه السيد محمد رشيد رضا في تفسير الآية السابقة من سورة البقرة، ولا داعي إلى ذكره الآن هنا، وسيأتي في موضوعه من هذا الكتاب .**

والشق الثاني من دليل الجمهور فيه مصادرة على المطلوب، لأن أصل النزاع بين الجمهور وهذا الفريق في كون الكفار غير المعاندين آثمين ومن أهل النار، أو غير آثمين ولا من أهل النار، ودعوى الإجماع في ذلك لا قيمة لها، لأن الإجماع لابد له من دليل يستند عليه، والدليل قائم عند هذا

الفريق على أن الكفار غير المعاندين غير آثمين، وهذا إلى إنكار بعضهم للاحتجاج به .

وقد ذهب الشيخ محمود شلتوت في كتابه – الإسلام عقيدة وشريعة – إلى مثل هذا، فذكر أن من لم يؤمن بالله ولا برسله ولا بنحو ذلك لا تجرى عليه أحكام المسلمين فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم بعضهم بعض، وليس معنى هذا أن من لم يؤمن بشيء من ذلك يكون كافراً عند الله يخلد في النار، وإنما معناه أنه لا تجرى عليه في الدنيا أحكام الإسلام، فلا يطالب بما فرضه الله على المسلمين من العبادات، ولا يمنع مما حرمه الإسلام كشرب الخمر وأكل الخنزير والاتجار بهما، ولا يغسله المسلمون إذا مات ولا يرثه قريبه المسلم في ماله، كما لا يرث هو قريبه المسلم إذا مات .

أما الحكم بكفره عند الله فهو يتوقف على أن يكون إنكاره لتلك العقائد أو لشيء منها بعد أن بلغته الدعوة على وجهها الصحيح، واقتنع بها فيما بينه وبين نفسه، ولكنه أبى أن يقنعها ويشهد بها عناداً واستكباراً، أو طمعاً في مال زائل أو جاه زائف، أو خوفا من لوم فاسد، فإذا لم تبلغه تلك العقائد، أو بلغته بصورة منفرة، أو صورة صحيحة ولم يكن من أهل النظر، أو كان من أهل النظر ولكن لم يوفق إليها، وظل ينظر ويفكر طلبا للحق حتى أدركه الموت أثناء نظره، فإنه لا يكون كافراً يستحق الخلود في النار عند الله .

ثم قال: ومن هنا كانت الشعوب النائية التي لم تصل إليها عقيدة الإسلام، أو وصلت إليها بصورة سيئة منفرة، أو لم يفقهوا حجته مع اجتهادهم في بحثها – بمنجاة من العقاب الأخروى للكافرين، ولا يطلق عليهم أسم الكفر. والشرك الذى جاء في القرآن أن الله لا يغفره هو الشرك الناشئ عن العناد والاستكبار، الذى قال الله في أصحابه ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا﴾ {١٤ النمل} .

وهذا صريح فى اختيار الشيخ محمود شلتوت لمذهب هذا الفريـــق، لولا أنه خلط بين مذهب هذا الفريق ومذهب الجمهور فيما رتبه علـــى مـــا ذهب إليه من النتيجة المقصودة، وهو أن من كان من الكفار من أهل النظر وظل ينظر ويفكر طلبا للحق حتى أدركه الموت أثناء نظره، فإنه لا يكـــون كافرا يستحق الخلود فى النار عند الله .

فإن هذا ليس محل الخلاف بين مذهب الجمهور ومذهب هذا الفريـق فى الكافر غير المعاند، بل هو محل اتفاق بين الجمهور وهذا الفريق، لأنـــه مات طالبا للحق ولم يصل إلى رأى قاطع، وليس هذا هو الذى يخالف فيـــه هذا الفريق مذهب الجمهور، وإنما الذى يخالف فيه الجمهور هو مـــن نظـــر واجتهد فأداه اجتهاده فى حياته إلى الكفر الصريح، وهذا هو الذى لم يشـــر الشيخ محمود شلتوت إليه، مع أنه فيما نقلناه عنه يرى رأى هذا الفريـــق الذى يفرق بين الكافر المعاند وغير المعاند .

وللبحث بعد هذا كله مجال فيمن هو المعاند؟ فهل هو الذى يعـــرف الحق ولا يؤمن به ولو اقتصر على نفسه، فلم يحاول منع غيره من الإيمـــان بوسيلة قهرية أو جدلية، أو الذى لا يقتصر على نفسه بل يحاول ذلـــك مـــع غيره ؟ ومما يفيد فى هذا البحث خلاف الجمهور فى أبى طالب عم النبـى ﷺ فقد ذهب بعضهم إلى أنه مات على شركه، ثم ذهب إلى أن حمايته للنبى مـــن المشركين تنفعه فى أخراه، وتنجيه من عذاب النار إلى مـــا لا يذكـــر مـــن العذاب، لأنه يبلغ فى خفته إلى أبعد حد .

ولا يفوتنى بعد هذا أن أضيف إلى نقدى السابق للشيخ شلتوت نقـــدا آخر لإخفائه نسبة ذلك الرأى إلى صاحبيه القديمين – الجاحظ والعنـــبرى – وهما من أعلامنا الأقدمين، ونسبته إليهما تجعل له قيمة أكثر من نسبته إلـــى الشيخ شلتوت، وما كان هذا ليخفى عليه وهو رأى مشهور درسه وهو طـالب

فى كتاب مشهور من كتب علم أصول الفقه. وإن كنا على عهد الطلب لم ندرك قيمة هذا الرأى فى عصرنا، لما كان يحيط بنا من الجمود الدينى والفكرى، فمر علينا فى ذلك الكتاب كما مر غيره من مسائل علم أصول الفقه، ولم ندرك مدى ما وصلت به سماحة الإسلام إلى حد لا يوجد فى غيره من الأديان، ولم ندرك أن الإسلام يصل به إلى أن يكون أسمح دين لبنى الإنسان" انتهى كلام الشيخ عبد المتعال الصعيدى .

وما يمكنا إضافته – على طريقتنا فى تقديم الاستشهاد بالقرآن واستخلاص الأحكام منه، إن نقول أن القرآن يتضمن العديد من الآيات التى تؤيد حرية العقيدة وتتقبل الأديان وتدع الاختلاف فيها إلى الله .

من هذه الآيات ...

- ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ . {٦٢ البقرة}

- ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ . {١١٣ البقرة}

- ﴿قل آمنا بالله وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ . {٨٤ آل عمران}

- ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ . {١١٨- ١١٩ هود}

- ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله. وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين. قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون﴾ . {٢٤ – ٢٥ سبأ}

- ﴿قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين﴾ .

{١ – ٦ الكافرون}

وتحدث القرآن الكريم عن اليهود والنصارى حديثا منصفا، بمثل الحياد والنزاهة التامة مما كان يمكن أن يكون درسا فى الموضوعية والأنصاف، ففى الوقت الذى ندد فيه بتعصب وإصرار اليهود، فإنه أعترف بما لدى البعض منهم من فضائل فقال ..

- ﴿ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما زلت عليه قائما، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ . {٧٥ آل عمران}

- ﴿ليسوا سواء، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون ويؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين. وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ . {١١٣ – ١١٥ آل عمران}

- ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم. وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾ . {١٩٩ آل عمران}

- ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين

ورهبانا وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ . {٨٣ المائدة}

واستغرب القرآن أن يدعوا اليهود الرسول ليحكم بينهم فقال :

- ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ . {٤٣ المائدة}

وتحدث عن الإنجيل ..

- ﴿.. فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾ . {٤٦ المائدة}

- ﴿.. وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ . {٤٧ المائدة}

وكان توجيه القرآن للحكم على الآخرين أولهم، أن يترك ذلك لله. وأنها أمم قد خلت لها ما كسبت "ولا تسألون عما كانوا يفعلون. وأن الله أعلم بمن يضل عن سبيله" ...

وقال القرآن بصريح العبارة ..

- ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ [١]

{١٠٥ المائدة}

- ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون﴾ . {١٣٤ البقرة}

---

(١) لقد التبس معنى هذه الآية على بعض الصحابة وظنوا أنها تنسخ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى بين لهم الرسول أنها عن النصارى واليهود، ويبدو أن هذا التفسير لم يصل إلى جميع الصحابة فوجد فى عهد أبى بكر مَن يقع فى اللبس حتى بينها لهم (أنظر مسند الإمام أحمد بن حنبل) .. (الفتح الربانى) ج١٨ ص ١٣٤ .

▫ ﴿قل لا تسألون عما أجرمنا، ولا نسئل عما يعملون﴾ . {٢٥ سبأ}

▫ ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾..
{٣٠ النجم}

▫ ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ .
{٧ القلم}

ونحن لا نعلم على وجه القطع هل أرسل الله تعالى إلى أهل الصين والهند واليابان رسولا أم لا، ولكننا نعلم يقينا أن الله تعالى قال ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ {١٥ الإسراء}، ومن ثم فإن من الخطأ الحكم بأن اتباع بوذا وكونفوشيوس وهم – أضعاف المسلمين والمسيحيين واليهود – في النار[1] .

ولما كانت السنة مبينة للقرآن ومطبقة لتوجيهاته فإن الرسول ما أن وصل المدينة حتى وضع وثيقة وحد فيها بين كل من يسكن المدينة وأعتبرهم "أمة دون الناس" "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم" وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الأثم الخ..[2]

وهناك أثر له دلالة عميقة هو ما جاء في مشكاة المصابيح، مرويا عن عبد الله بن عمر قال كنا نسير مع النبي ﷺ في بعض غزواته، فمر بقوم فقال "من القوم" قالوا نحن المسلمون، ولمرأة تحصب (أي توقد) بقدرها ومعها ابن لها فإذا ارتفع وهج تنحت به فأتت النبي ﷺ فقالت "أنت رسول الله؟" قال نعم قالت "بأبي أنت وأمي أليس الله أرحم الراحمين" قال "بلى" قالت

(١) حقا إن الله تعالى قال "وإن من أمة إلا خلا فيها نذير" {٢٤ فاطر} ولم يقل رسول..فإذا كان بوذا وكونفوشيوس ينطبق عليهم وصف نذير فإنهم يكونون حجة على أقوامهم خاصة عندما تتفق القيم التي يدعون إليها مع القيم الإسلامية .
(٢) تاريخ السيرة النبوية لأبن هشام ص ٢٤٩ ج٢ .

"إن الأم لا تلقي ولدها في النار" فأكب رسول الله ﷺ يبكي ثم رفع رأسه إليها فقال "إن الله لا يعذب من عباده إلا المارد المتمرد الذى يتمرد على الله وأبى أن يقول لا إله إلا الله" رواه ابن ماجة [1] .

فهل هناك تعددية دينية دون حساسية مثل هـــذه.. ولمـــاذا لا يقبـــل المسلمون اليوم ما قبله الرسول نفسه عندما دخل المدينة، ولا يذهبون إلى مـــا ذهب إليه مما هو أقرب إلى رحمة الله ؟ ..

* * *

ومنذ أن كتب الرسول وثيقة المدينة، وقال إن الأنبياء أخوة عـــلات وأن الأديان هي "البيت الكبير" الجميل لولا ثغرة فيه، جاء الإسلام ليســـدها، ومنذ أن قال "نحن أولى بموسى منهم" وقد نزل حبل صُرى من الرسول إلـــى أفراد من المسلمين آمنوا بتعددية الأديان وأخوة الأنبياء، ولعل أبرزهـــم هـــو ابن عربي في أبياته المشهورة :

لقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبي	إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمرعى لغزلان وبيـــت لأوثان
وديـــر لرهبان وكعبة طائـــف	وألواح تـــوراة ومصحف قرآن
أديـــن بدين الحـــبّ أنىّ توجهت	ركائبه فالحب ديـــني وإيماني

ومن ابن عربي ننتقل الحبل إلى ابن الفارض الذى قال فـــي تائيـــة السلوك :

وإن نـــار بالقرآن محراب مسجـــد	فما بـــار بالإنجيل هيكل بيـــعة
وإن عبد النار المجوس وما انطفت	كما جاء في الأخبار في ألف حجة
فما قصدوا غيري وإن كان قصدهم	سواى وإن لم تكن أفعالهم بالسديدة

---

(١) مشكاة المصابيح – المكتب الإسلامي – بيروت ج ٢ ص ٧٣٥ .

وظل هذا الحبل كامنا حتى بعثته يقظة الفكر الإسلامى فى العصر الحديث، فأعاد شوقى الفكرة فى ثوب قشيب :

رب شقت العباد أزمان لا	كتب بها يهتدى ولا أنبياء
ذهبوا فى الهوى مذاهب شتى	جمعتها الحقيقة الزهراء
فإذا لقبوا آلها قويا	فله بالقوى إليك انتهاء
وإذا آثروا جميلا بتنزيه	فإن الجمال منك حياء
وإذا انشأوا التماثيل غرا	فإليك الرموز والإيماء
وإذا قدروا الكواكب أربابا	فالمراد الجلالة الشماء
وإذا يعبد الملوك فإن الملك	فضل تحبو به من تشاء
وإذا تعبد البحار مع الأسماك	والعاصفات والأنواء
وسباع السماء والأرض والأرحام والأمهات والآباء	
لعلاك المذكرات عبيد	خضع والمؤنثات إماء
جمع الخلق والفضيلة سر شف عنه الحجاب فهو ضياء	

وقد لا تثير هذه الأبيات دهشة لشفافية روح الصوفى والشاعر، ولكن الذى يثير الدهشة أن يجدها بألفاظها تقريبا لدى فقيه يمثل الفقه الشيعى وهو أكبر وأشهر آيات الله فيه إلا وهو آية الله العظمى الإمام الخمينى الذى روى عنه ..

"على بوابة الحان
والمعبد والمسجد والدير
وقعت منهارا فى سجود
كأنك ترمقنى من هناك"[1] .

---

(١) أنظر عدد مجلة التوحيد (طهران – قم) الخاص بالتعددية فى الإسلام (مرجع سابق) ص ٨٧ .

الفصل الرابع

الحكمة
أصل مسكوت عنه من أصول الإسلام
يقرر الانفتاح والتعددية

يعجب الإنسان كيف فات على الأئمة الأعلام أن يجعلوا من الحكمة أصلا من أصول الإسلام ومصدرا من مصادر الفقه. بعد أن ذكر القرآن الكريم الحكمة مرارا وتكرارا، وقرنها بالكتاب .

أغلب الظن أنهم عزفوا عن الاعتراف بأصل ومصدر مفتوح غير محدد أو منضبط، يسمح بالانفتاح والتعددية، وهي صفات يضيق بها الفقهاء عادة، لأنها تفتح عليهم بابا لا يمكنهم التحكم فيه .

وقد ذكر القرآن الكريم الحكمة في آيات عديدة منسوبة إلى الرسول ومقترنة بالكتاب مثل :

- ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ . {١٢٩ البقرة}
- ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ . {١٥١ البقرة}
- ﴿واذكروا نعمة الله عليكم، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به﴾ . {٢٣ البقرة}

- ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة. إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ . {٣٤ الأحزاب}

- ﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياتهم ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾ .

{٢ الجمعة}

وكان إيراد القرآن للحكمة بهذه الصفة مما دفع بالشافعى لأن يذهب إلى أن الحكمة هى السُنة، لأنه ليس للآيات من تأويل إلا هذا، وهو أمر كان يمكن قبوله لولا أن القرآن الكريم استخدم كلمة الحكمة فى آيات أخرى كثيرة بمعنى ينفى أن يكون المقصود بها السُنة. فقد آتى الله داود الحكمة .

- ﴿وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه ما يشاء، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو الفضل على العالمين﴾ . {٢٥١ البقرة}

- ﴿وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ . {٢٠ ص}

كما أتاها "الحكمة" لقمان :

- ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله. ومن يشكر الله فإنما يشكر نفسه، ومن كفر فإن الله غنى حميد﴾ . {١٢ لقمان}

كما أتاها عيسى :

- ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ . {٤٨ آل عمران}

- ﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون﴾ . {٦٣ الزخرف}

بل أتاها النبيين :

□ ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة، ثـم جـاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم علـى ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فأشهدوا وإنا معكم من الشاهدين﴾ .

{٨١ آل عمران}

كما تكلم عن الحكمة بصفة مجرد :

□ ﴿يؤتى الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خـيرا كثـيرا، وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ . {٢٦٩ البقرة}

□ ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ . {١٢٥ النحل}

□ ﴿حكمة بالغة، وما تغنى النذر﴾ . {٥ القمر}

* * *

إزاء هذه الآيات التى تجعل الحكمة جزءا من رسالة الرسل وشـريكة للكتاب، يكون علينا أن نرد على سؤال ذى شقين: الشق الأول هو ماذا يعنيـه القرآن بتعبير "الحكمة" ؟، والثانى هو لماذا ذكر الحكمة جنبـا إلـى جنـب الكتاب ولم يقتصر على الكتاب وحده ..

لعل أقرب تعيين لمعنى الحكمة فى القرآن هو العقل الخـير والقيـم العليا، والعلم الهادى الذى يستبعد الخرافة ويحول دون أن يضل المؤمنون ..

وقد يلقى بضوء على هذا أن الله تعالى وصف نفسه فى آيات كثـيرة بأنه "حكيم" أو عزيز، وفى مواضع قليلة " خبيرا " .

كما قد يعنينا أن نعلم أن "الحكم" وليس هو ببعيد فى الاشتقاق اللغوى من كلمة "حكمة" يراد به "القضاء" أو سياسة أمور الناس، وهى كلها تحتـاج أول ما تحتاج إلى الفطنة والكياسة ومعرفة طبائع الأشياء وأصول الشـريعة.

والسنن التي يسير عليها المجتمع.. وهي في إجمالها لا تخرج عما أشرنا إليه من المعرفة، والعلم والخبرة .

يعزز هذا أيضا النصوص المتواترة والمتعددة في القرآن عن الحث على التفكير وإعمال العقول والتدبر فيما خلق الله وأوجده من آيات وسنن والتعرف على آثار الحضارات القديمة وما تركوه من جنات وعيون الخ.. وأدل على هذا ما جاءت به الآية ٣٧ من سورة الرعد ﴿وكذلك أنزلناه حكما عربيا، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم، مالك من الله من ولي ولا واق﴾. فنجد هنا الجمع ما بين القرآن والحكم والعلم في سياق واحد

ومن ناحية أخرى، فمن المعروف أن الحكمة ترادف كلمة "الفلسفة" وأن "الفيلسوف" إنما هو "محب الحكمة" وقد فهم ابن رشد الحكمة التي ذكرها القرآن بمعنى الفلسفة .

وجاء في مقال لأحد الباحثين عن معنى الحكمة [1] ..

إن معاني الحكمة التي حددها اللغويون والمفسرون الإصابة في القول والفعل، ومعرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، أو هي العقل، والعلم والفهم، والمصلحة، والموعظة، والفلسفة، أو المعرفة بالدين والفهم فيه، والنبوة، والفقه، أو هي بحسب الطبرسي في كتابه "مجمع البيان في تفسير القرآن" العلم الذي تعظم منفعته وتجل فائدته، وإنما قيل للعلم حكمة لأنه يمتنع به عن القبيح لما فيه من الدعاء إلى الحسن والزجر عن القبيح .

ومهما قيل أو يقال فإن الحكمة لا تخرج أبدا عن معنى السداد والصواب، ووضع الشيء في موضعه قولا وعملا فالحكيم هو الذي يحكم

---

(١) أنظر مقالا للدكتور إبراهيم العاني مدير الدراسات والبحوث – الجامعة الإسلامية (لندن) في جريدة الحياة بعنوان ما بين الحكمة والشريعة: الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له. (الحياة ٢٠٠١/١/٦) .

الشيء، ويأتي به على مقتضى العقل الواقع لا بحسب الميول والرغبات ولا يستعجله قبل أوانه أو يمسك عنه في زمانه أو ينحرف به عن حدوده وقيوده كما يذكر محمد جواد مغنية فى كتابه "التفسير الكاشف" .

والتعريفات التى قدمها فلاسفة الإسلام للحكمة لا تختلف فى جوهرها عما سبق ذكره، فهى عند الكندى "علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان، لأن غرض الفيلسوف فى عمله إصابة الحق، وفى عمله العمل بالحق" (راجع رسائل الكندى الفلسفية)، والأمر نفسه نجده عند الفارابى وابن سينا .

أما ابن رشد فلعله خير من فصّل العلاقة بين الحكمة والشريعة، وأثبت بما لا يقبل الشك أن الحكمة واجبة شرعا وعقلاً. فهو يرى ابتداء فى كتابه "فصل المقال" أن الحكمة أو الفلسفة لو تعمقنا معناها فهى ليست شيئاً أكثر من "النظر في الموجودات من حيث دلالتها على الصانع، أعنى من جهة ما هى مصنوعات، فإن الموجودات إنما تدل على الصانع بمعرفة صنعها، وأنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم" وهذا توجيه واضح إلى أن غاية الفلسفة في النهاية الوصول إلى حقيقة وجود خالق لهذا الكون، ولا أدرى هل توجد للدين عموماً، وللإسلام خصوصاً، غاية أجل وأسمى من ذلك " أ هـ .

نقول إننا وإن كنا نتفهم تفسير ابن رشد للحكمة فإننا نؤثر التعريف العام – أى العقل والعلم والفهم وإدراك روح الإسلام ومقاصده وقيمه. لأن الفلسفة قد تثير معنى اصطلاحيا يحصر الحكمة فى متاهات علم الكلام ويركز الاهتمام على ذات الله تعالى – كما عند المعتزلة – وكان أحرى بهم أن يستخدموا الحكمة فيما يحقق الخير للمجتمع والناس وما يصلح الأوضاع الاقتصادية والسياسية وينقلها إلى عالم الحياة الدنيا الذى تكون مفيدة وفعالة فيه، وليس إلى عالم الغيب وذات الله تعالى فضلاً عن أننا نهينا عن تقصيه

وعمليا فإن اعتبار الحكمة هي الفلسفة وعكوف الفقهاء عليها أدى إلى إفساد الفلسفة، وإفساد الدين معا .

أن هذا التفسير لمعنى كلمة "الحكمة" التي ترددت في القرآن الكريم كأصل من أصول رسالة الأنبياء يعيننا في الرد على الشق الثاني من السؤال، وهو لماذا ذكر القرآن الحكمة جنبا إلى جنب القرآن. ولم يقتصر على الكتاب وحده ؟ الرد أن الكتب السماوية سواء كانت قرآنا أو إنجيلا أو توراة هي بالدرجة الأولى كتب هداية، وقد تضمنت أصول وقواعد ومبادئ هذه الهداية، ولكنها لم تتضمن تفاصيل وجزئيات ذلك. كما لم تتناول جوانب أخرى عديدة تزهر بها الحياة الإنسانية، ولا يمكن أن يتضمنها كتاب واحد، وفي الوقت نفسه فلا يمكن تجاهلها أو إغفالها، فهناك الآداب من شعر أو نثر أو رواية، وهناك الفنون من تمثيل وموسيقى ورقص، وهذه الآداب والفنون تبلور العواطف والأحاسيس وما يجيش به القلب، وهناك الفلسفة وطرائقها في البحث وهناك قبل هذا كله، العقل الإنساني الذي يستبد به الفضول والاستشراف للمعرفة ونشوة الكشف عن الآفاق المجهولة، والتجربة.. بحيث يغير، ويبدل في حياة الناس وأوضاع المجتمع، ويكون ما أراده الله له - وحيا ذاتيا في نفس كل فرد يحمل النفثة الإلهية في الإنسان، ويبدع نماذج وتجليات للحكمة التي تعزز الدين وتستكمل نقصه، وتحقق للحياة الإنسانية الثراء، والوفرة، والتعددية، وتربط ما بين القديم والجديد، الشرق والغرب اللغة العربية وغيرها من اللغات .

ولعل الله تعالى وهو العليم بذات النفوس لم يشأ للمسلمين أن يوغلوا فيما وجههم إليه القرآن من تقوى وورع بحيث يحيف هذا على حق الحياة الدنيا وما تتطلبه من مقتضيات فتذهب حياتهم الدنيا بدعوى الحرص على الحياة الآخرة والله تعالى يريد التوازن وأن لا يفقد المسلمون حياتهم ووجودهم الدنيوي فنص على الحكمة بجانب الكتاب وأورد ذلك في الكتاب نفسه حتى لا يظن ظان أن الأخذ بها (أي الحكمة) يخالف الكتاب. لأن الله

تعالى أراد بجانب التدين الأخروى نوعا من التدين الدنيوى، بل أنه أعترف بما تنزع إليه النفوس بحكم طبيعتها، ولم يأت الإسلام لقمع الميول والعواطف، ولكن للحيلولة دون أن تستبد الشهوات بالناس فلا يعنوا إلا بها.

ونحن لا نستبعد أن ينتهى هذا المنهج إلى ما قد يجافى الحكمة نفسها، والميل إلى بعض ما "تهوى إليه الأنفس"، ولكن لا يدق على من يتعمق فى الأمور أن يرى أن هذا إنما أريد به توقى شر أعظم. ونحن نرى فى حياتنا اليومية أن الإغراق فى العبادة وشدة الحرص على تجنب صغائر الذنوب قد أضاع على المسلمين حياتهم الدنيوية، وجعلهم يشقون على أنفسهم ويلزمونها بما لا يلزم، ويهدرون فى سبيل ذلك ما هو أجدى. وأنه أفقد فيهم حاسة الأولويات وواقع التعدديات. هذا كله فضلا عن أن معالجة الأوضاع لا يمكن أن تتم بتجاهل ما تتضمنه من جوانب قد لا تروق لنا.. إذ لابد من الاعتراف بها والتعامل معها تعاملا موضوعيا علميا، أى بالحكمة، وليس بالتجاهل أو بالقمع .

ولو أقتصر الله تعالى على ذكر الكتاب دون ذكر الحكمة لكان من المحتمل أن يتعسف فهمه وتفسيره فئات من الناس أو أن يتخذوا منه أداة تحقق مآرب خاصة، واتجاهات معينة ولضاقت مجالات الحياة بالإنسان ووقعوا فى قبضة "كهنوت" يعسر لا ييسر ويغلق لا يفتح ويضيق لا يوسع، وهذا هو ما حدث للأسف الشديد، عندما تجاهل العلماء "الحكمة" فحرموا الفكر الإسلامى الإفادة من ثمار الحضارات البشرية، قديمة وجديدة شرقية، وغربية. فحجروا واسعا، وحبسوا أنفسهم – والإسلام – فى دائرة مغلقة .

إن "ثورة المعرفة" فى العصر الحديث وتدفقها من أربعة أركان العالم ووصولها عبر المطابع والقنوات الفضائية والإنترنت وخدمات التصنيف وضع تحت أيدى البحاث كل كنوز العالم القديم، وكل مستجدات العصر الحديث بحيث أصبح "الكتاب" أى القرآن يمثل دليل العمل والإطار

العريض للخطوط الرئيسية، أما ما يملأ الحياة فهى هـذه العلـوم والفنـون والمعارف التى تتدفق فيما يشبه الفيضان من كل الدول المتقدمة. وأصبحت رمز ثروة وقوة العصر الحديث. ومن هنا تتضح حكمة الله تعالى فى النص عليها مرجعاً وأصلاً من أصول الإسلام لأنها هى أداة التحديث والانفتاح والإفادة من كل معارف العالم وهى بعد، ما يحقق العـزة والمنعـة والقـوة للمسلمين .

وقد طبق الرسول توجيه القرآن عندما قال "الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها"، وقال "اطلبوا العلم ولو فى الصين"، ووجـه أصحابه لتعلم اللغات وأخذ باقتراح سلمان شق الخندق الخ ..

واليوم تنفض دعوة الإحياء الإسلامى الغبار مـن علـى الحكمـة، وتعيدها إلى ما أرادها الله تعالى شريكة للكتاب فى الرسالة.. وتنهل من كـل معين للحكمة. من علوم، وفلسفة، وآداب وفنون دون حرج لأنها أصل نـص عليه الكتاب كمصدر للإسلام، كما أنها ليست إلا تجليات للفكر الإنسانى ومـا أودعه الله فيه من قوى تتوصل بها إلى الحقائق، وتصـول، وتجـول فـى مجالات الإبداع الإلهى المعجز وتفيد منه وتثرى الحياة به، وتسـعد القلـوب والعقول، وتسد الحاجات - فلا تكون فاقـة ماديـة ونفسـية - ولا احتكـار للمعارف ولا سدود قائمة تحول دون الإفادة من ذخائر الحضارة الإنسانية ..

الفصل الخامس

التعددية في مجتمع إسلامي

تعود الإشارات الكثيرة التي أوردناها عن التعددية في القرآن الكريم إلى وجود أصل رئيسي لها هو التصور الخاص للإسلام لما يكون عليه المجتمع البشري الذي أشرنا إليه إشارة موجزة في مقدمة هذه الرسالة، ولما كان المجتمع الإسلامي جزءا من المجتمع البشري – حتى وإن كان له خصائصه المميزة – فإن ما يقال على المجتمع البشري يصدق بدرجات متفاوتة على المجتمع الإسلامي .

ولما كان المجتمع يضم ملايين الأفراد وآلاف الهيئات فلابد من وجود التعددية بحكم الأمر الواقع من ناحية، ولأنه من ناحية أخرى لا يمكن لأي هيئة أن تستوعب الحقيقة. فالحقيقة أكبر اتساعا، وأكثر عمقا وأشد تعقيدا وتعميقا من مدارك فرد واحد أو هيئة واحدة. فالقصور البشري يحول دون ذلك، وغلبة الذاتية على الفرد الواحد أو النظرة الواحدة تجعلها لا ترى إلا بعدا واحدا من أبعاد الحقيقة وتؤثر على أحكامها، وتجعلها بعيدة عن الموضوعية. ويمكن بالطبع لفرد أو لهيئة أن تمسك بشعبة من الحقيقة، أما أنه، أو أنها تستطيع الاحاطة بالحقيقة فهذا ما لا يمكن. وما يعني أن لم يعد للآخرين فكر أو رأي أو مجال، وهو اختزال لمجتمع يناقض الطبائع

الاجتماعية ولا يعني – في النهاية – إلا فرض ديكتاتورية عشوية تقوم على الظلم وتنتهي بالفشل .

ومن الطبيعي أن تستتبع هذه التعددية وجود الاختلاف وقبوله لا على أساس أنه ضرورة سيئة ولكن على أساس أنه جزء لا يتجزء من بينة وكيان المجتمع، لا يمكن أن يقوم بدونه. ولما كانت تلك النقطة قد تبدو جديدة على الكثيرين ممن تثقفوا ثقافة إسلامية تقليدية واحدية، فقد رأينا أن نبسط القول فيها في النبذة التالية .

قضية الاختلاف والائتلاف في المجتمع الإسلامي :

الائتلاف والاختلاف هما قوام كل مجتمع، بما في ذلك المجتمع الإسلامي.. فالمجتمع كالنسيج الذي يكتسب تماسكه وقوته من تلاقي اللحمة بالسدى. ومن تقابل الخطوط العرضية بالخطوط الطولية. والحقيقة أن الائتلاف والاختلاف لا يقتصر على المجتمع، فهما موجودان في الكون كما أنهما موجودان في الفرد، وداخل كل واحد منا تدور معارك وتحدث حروب لا يراها أحد ولا يحس بها صاحبها ما بين كرات الدم البيضاء والميكروب الذي يغزو الجسم ويصيبه بالأمراض، وهناك عمليات تتم في جزء من ثانية غاية في الدقة والتعقيد الكيميائي والكهربائي لتحويل الهواء إلى دماء وفرز الطعام وهضم ما يريده الجسم وطرد الزائد عنه الخ.. فالفرد الإنساني كائن معقد، متعدد وأن كان هذا يتم في إطار الكيان الفردي للفرد ولو عددت الخلايا التي تعمل داخله كما لو كانت جنودا لأشبهت جيشا جرارا يضم الملايين .

فإذا كان هو شأن الفرد، فإن هذا الفرد ما أن ينشئ أسرة حتى تتضخم المسئوليات، وتتعدد الائتلافات والاختلافات ما بين شخصه، وشخص زوجته، فإذا جاء الأبناء أضيف عامل جديد... وهذا كله بالنسبة

لأصغر دائرة من دوائر المجتمع وهى الأسـرة.. ولنـا أن نتصـور حجـم الائتلافات والاختلافات في الوطن الذى يضم ملايين العائلات والأسر ..

من هنا فإن التسليم بالائتلاف والاختلاف فى المجتمـع، والالـتزام بآدابه هو الضمان لأن لا يتحول الاختلاف الذى هو جوهر التعدديـة إلـى خلاف هو جوهر الأحادية.. فالاختلاف يحتمل الرأى الآخر.. ولكن الخـلاف يضيق بالرأى الآخر، وبالتالى يسد المنافذ والطرق أمام التعددية لينتهى إلـى سيادة الرأى الواحد.. ونعتقد أن هذا من أكبر المخاطر التى تتعـرض لـها التعددية فى المجتمعات الإسلامية لأنها عادة حديثة عهد بالحريـة. والكثـير منها يؤمن بالإسلام "قولا واحدا" وأن الحق هو ما يراه هو، والآخر نوع مـن الضلال. فإذا لم يلتزم الجميع بآداب الاختلاف ويؤمنوا أن الاختـلاف فـى الفكر لا يثير حفيظة ولا يقتضى عداوة بل إنه أمـر مطلـوب لأن الحقيقـة أعظم من أن يستوعبها رأي واحد. وأن كان كل واحد يمكن أن يمسك بشعبه منها، وأن هذا لا يثير عداوة، ولا يبعث على التنديد بـالآخرين، وأن الفكـر والمجتمع هو غير الحساب والرياضـة لا يعنـى الاختـلاف فيـه الخطـأ والصواب بالمعنى الرياضى، وإنما هو النظر إلى بعد من أبعاد الحقيقـة لـم ينظر إليه الطرف الآخر أو التركيز على جانب لم يعطه الفريق الأخر حقـه، وهذا لا يعنى أن يتضارب فريق مع الآخر أو يتناقض معه ولكنه يكمله .

إن الذين يرون – كالمودودى – أن المجتمع الإسلامى الأمثـل هـو المجتمع الذى لا يوجد فيه إلا إمام واحد. وفكر واحد وحزب واحد يقـودون اتباعهم إلى نفق مظلم، ويؤخذون بفكر نظرى يناقض طبيعة الأشـياء ولـو قدر لهم الانتصار لجنوا على بلادهم أعظم الجنايات، وهم يحسـبون أنـهم يحسنون صنعا .

وهؤلاء لا يختلفون في شئ عن جماعة أخرى تقيم مجتمعا أحاديـا لأن حديثا الله أعلم به يقطع بأن فرقة واحدة هى الناجية من الفرق السـبعين التى ستختلف عليها الأمة ...

وما على هذا تبنى النظم وتستخلص الأحكام ..

* * *

ويعطي ما جاء في القرآن الكريم تحت مادة "اختلف" دلالات ثمينة تناقض الانطباع السائد، لأنها ترى أن الاختلاف ظاهرة طبيعية يقوم عليها الكون والمجتمع والفرد. فليس مر السنين إلا نتيجة لاختلاف الليل عن النهار ورأى القرآن في هذا الاختلاف آية تثير الفكر ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾. وهو معنى مكرر في عديد من الآيات كما تتمايز العناصر والشعوب ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾. ورأى في اختلاف الألوان جمالا في الطبيعة، والثمرات والجبال، وجعل الناس "شعوبا وقبائل لتعارفوا"

ورأى القرآن الكريم أن الاختلاف في المجتمع هو أمر لا مناص عنه، وأن الاتفاق أمر مستبعد، أن لم يكن مستحيلا، وأن محاولة فرض رأى معين على الآخرين يثير العناد ويدفع للتمسك بالرأى الآخر ويصيب العلاقة بسم العداوة.. ولهذا فأنه أحال البت في هذا الاختلاف إلى الله تعالى يفصل فيه يوم القيامة. وهو ما يغني الفرقاء عن الصراع والكفاح والعمل بكل وسيلة لحمل الآخرين على التسليم لهم .

وكان هذا هو الحل الأمثل فما دام الاختلاف قائما وما دام المطلوب هو أن لا يثير هذا الاختلاف العداوة والبغضاء والنزاع والخصام، فلا مفر من إيكال الأمر إلى الله تعالى يفصل فيه يوم القيامة .

ومراجعة مادة "اختلفوا" في القرآن توضح ذلك كما يلي ..

- ﴿ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ .{٥٥ آل عمران}
- ﴿إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ .
{٤٨ المائدة}

□ ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ .
{١٦٤ الأنعام}

□ ﴿الله يحكم بينكم يـوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾ . {٦٩ الحج}

□ ﴿قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الـذى تختلفون فيه﴾ .
{٦٣ الزخرف}

□ ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ . {١١٣ البقرة}

□ ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون﴾ .
{١٩ يونس}

□ ﴿إن ربك يقضى بينهم يـوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ .
{٩٣ يونس}

□ ﴿ ليبين لهم الذى يختلفون فيه .. .. ﴾ . {٣٩ النحل}

□ ﴿وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ .
{١٢٤ النحل}

□ ﴿ومهما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله ذالكم ربى عليـه توكلـت وإليه أنيب﴾ . {١٠ الشورى}

□ ﴿إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ .
{٢٥ السجدة}

□ ﴿إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون .. .. ﴾ . {٣ الزمر}

□ ﴿ أنت تحكم بين عبادك فى ما كانوا فيه يختلفون﴾ . {٤٦ الزمر}

وثمة لفتة هامة أشار إليها القرآن أكثر من مرة بالنسبة للاختلاف، تلـك هى أن هيمنة البغى هى التى تجعل الاختلاف أمرا سيئا ..

- ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم﴾ {البقرة ٢١٣}
- ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾ . {١٩ آل عمران}

وأقرب المعاني إلى ما أراده القرآن الكريم بتعبير "بغيا بينهم" هو السلطة التي هي بطبيعتها مفسدة ويغلب دائما أن تغرس بذرة البغي، وبدون هذا لا يحتدم الاختلاف أو يتحول إلى عداوة، والتاريخ السياسي في المجتمع الإسلامي شاهد على هذا. فأفضلية الإمام على كرم الله وجهه على أبي بكر أو عمر كان يمكن أن تكون اجتهادا نظريا صائبا، أو خاطئا. ولكن عندما أصبح له مضمون سياسي وسلطوي تسبب في انشقاق الأمة. كما أن فكرة خلق القرآن كان يمكن أن تعد حذلقة فلسفية أو ترف فكري. ولكن عندما آمن بها الحاكم واتخذها مذهبا مقررا في الدولة انتهى باضطهاد المخالفين وجلد الإمام الجليل أحمد بن حنبل .

فإذا كان القرآن قد أقر الاختلاف، ووكل الفصل فيه إلى الله تعالى يوم القيامة، فإن السنة أيضا أقرت الاختلاف عندما ارتأى الرسول أن للمجتهد المصيب حسنتين (أو أجرين)، وللمخطأ حسنة (أو أجر) فالثابت المجتهد الذي يخطئه التوفيق، فإذا كانت حسنة التوفيق قد أخطأته، فإن حسنة الاجتهاد لم تفته. وهذا أقصى ما يمكن أن يصل إليه الاعتراف بالتعددية وبحرية الفكر لأنه يجاوز إطار الإقرار إلى درجة التشجيع. كما أن الرسول أقر الاختلاف في جانب هام له قداسته الخاصة وهو قراءات القرآن. فقد صعب على بعض قبائل العرب النطق بلغة قريش في بعض الآيات ونطقوها بطريقة مختلفة فأجاز الرسول لهم ذلك ما دام التغيير مقصورا على طريقة النطق بالكلمة دون مساس بمعناها، وأن التطور سيقضي على هذه الاختلافات الآنية، وكان هذا هو الأصل في تعدد القراءات القرآنية .

ومعلوم جيدا أن الصحابة كانوا يختلفون في فتاويهم، وأن هذا لم يؤثر أبدا على مشاعر المودة والتقدير المتبادلة. وورث التابعون هذه الصفة عن الصحابة، كما ورثها تابعوا التابعين.. ولم يثر الاختلاف عداوة إلا عندما أرتبط – فيما بعد – بالسلطة .

ولم يجد الصحابة والتابعون حرجا في اختلافهم، وكانت وشائج التقدير والحب تربط بين الذين جمعهم وقت واحد مثل مالك والشافعي والليث ومحمد بن الحسن الخ.. وكان بعضهم يأخذ في – بعض المناسبات – ببعض ما ذهب إليه الآخرون وكانوا جميعا ينهون الناس عن أن يقلدوهم ويأمرونهم بأنعام النظر والتدبر .

وقال القاسم بن محمد – أحد أئمة المدينة السبعة – "لقد نفع الله باختلاف أصحاب محمد ﷺ في أعمالهم لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى أنه في سعة" وقال عمر بن عبد العزيز "ما يسرني أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا لأنهم إذا اجتمعوا على قول فخالفهم ضال، وإذا اختلفوا فأخذ رجل بقول هذا ورجل بقول هذا كان في الأمر سعة" .

وقد حفظ لنا التاريخ أمثلة للاختلافات ما بين الأئمة، ونماذج ردودهم مثل :

١. الرد على سير الأوزاعي لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم .
٢. الرد على أبي حنيفة لأبي بكر بن أبي شيبة ضمن كتابه المصنف .
٣. الرد على محمد بن الحسن الشيباني للإمام الشافعي .
٤. بيان خطأ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في تاريخه لأبي محمد بن أبي حاتم الرازي .

٥. كشف الأوهام التى فى كتاب "المدخل إلى الصحيح" الذى صنفه الحاكم النيسابورى لعبد الغنى الأزدى .

٦. بيان الوهم والإبهام الواقعين فى كتاب الأحكام لعبد الحق الاشبيلى لأبن القطان .

٧. إصلاح غلط أبى عبيد فى غريب الحديث لأبن قتيبة الدينورى .

٨. ما دار بين الليث بن سعد إلى مالك بن أنس من مكاتبات تكشف عن الأدب الجم والتقدير المتبادل .

وهذا قليل من كثير ..

ومعروف أن الإمام مالك بن أنس رفض أن يكون كتاب "الموطأ" هو المرجع الوحيد فى الأحكام عندما أراد ذلك الخليفة أبو جعفر المنصور. كما أنه (أى الخليفة المنصور) رفض ما اقترحه ابن المقفع فى رسالة الصحابة تقنين الفقه أو الأخذ بإحدى وجهات النظر الفقهية. وقد حاول عمر بن عبد العزيز شيئاً من هذا من قبل، وكان ذلك فى أصل فكرته عن تدوين السنن، ولكن الطبيعة التعددية المتفتحة للمجتمع الإسلامى حقبة النهضة والفتوة والثقة فى النفس كانت أقوى من أن تستسلم للقيود أو الضوابط، وظل الاجتهاد سارياً حتى أدى إلى نوع من البلبلة فى الأحكام فى البلد الواحد. فى الوقت الواحد. وكان المفروض أن يوجد نوع من التنظيم وإطار من الضوابط – لأن الضوابط مما لا مناص عنها فى أى عمل اجتماعى – ولكن فتوه المجتمع الإسلامى وقتئذ استعصت على ذلك، وكان الحل المؤسف فيما بعد هو إغلاق باب الاجتهاد والاقتصار على المذاهب التى أثبتت رسوخها، ويلحظ أنه حتى فى هذه الحالة فإن التحديد لم يأخذ شكل الواحدية ولكن بالإضافة إلى المذاهب الأربعة، فإنه ضم المذاهب الأخرى كالأثنى عشريا

فى إيران والزيدية فى اليمن والاباضية التى يؤمن بها البعض فى عمان. كما أن مذهب الطبرى وداود الظاهرى (ومعه ابن حزم) أى الظاهرية .

* * *

بالإضافة إلى هذه الضرورية الأصولية للاختلاف فى المجتمع، فقد كان هناك عاملان أديا إلى التعددية فى مجتمع إسلامى هما هداية الأنبياء، وغواية الشياطين ..

أ. هداية الأنبياء :

إنه لمن الطبيعى فى مجتمع يؤمن بدين ما، أن يكون الدين هو أكبر عامل فيه. فهداية الأنبياء هى محور هذا المجتمع. وهذه الهداية لا تأخذ شكل الواحدية فى المجتمع، ولكن التعددية، كما أثبتنا ذلك فى الفصول السابقة عن إشارات القرآن إلى التعددية وعن قبوله لتعددية الأديان، وأن داخل إطار المجتمع الإسلامى تتعدد الاجتهادات وتتباين الآراء وتظهر المذاهب، وإن كانت هذه التعددية تأوى فى النهاية إلى إطار فسيح وإلى أصل مكين هو الإسلام ونحن فى غنى عن أن نكرره هنا، لأن المقصود هو الإشارة إليه، كعامل بارز من عوامل التعددية أما شرحه وتبيانه والبرهنة عليه فهذا ما تضمنته الفصول السابقة .

ب. غواية الشياطين ..

العامل الثانى الذى يؤدى إلى تعددية تختلف عن التعددية السابقة فى إنها قد تشط حتى تجاوز إطار السمت الإسلامى هو غواية الشيطان

فقد خلق الله تعالى الإنسان من "طين" ليتلاءم مع تربة الأرض التى سيعيش عليها وضروراتها الملزمة ونفث فيه من روحه ليمكنه – إذا أراد –

من السمو إلى سماوات القيم ووهبه عقلاً يميز به ما بين الخطــأ والصـــواب وقلبا يهديه إلى الخير دون الشر. ولكن الله تعـــالى العليــم بالإنســان ومــا توسوس به نفسه – رأى أن هذا كله لا يعصم الإنسان مــن الانحرافــات أو إيثار اللهو واللذة والمتعة على العمل والقصد والاعتدال. دعم الإنسان بهدايــة الأنبياء الذين عرفوه المعرفة الحقة – على الله تعالى، وعلـــى مــا يحــدث للإنسان بعد الموت وهو ما يعجز العقل عن الوصول إليه ..

واقتضت إرادة الله وحكمته البالغة أن يكون هناك محــك للإيمــان، ولمدى عمقه أو سطحيته في نفوس الناس، فمن أسهل الأشــياء الإدعــاء أو التظاهر. ولذلك جعل الله تعالى "العمل" مصداقاً للإيمان فالإيمان دون عمــل يظل ادعاءً حتى يثبته – أو ينفيه – العمل ..

ولكن هذا العمل يحتاج بدوره إلى محك يكفل دوامه ويثبت صمــوده أمام الشهوات وما تهوى الأنفس .

أن الملائكة لا تتعرض للإغواء، وإيمان هؤلاء الملائكة لاشك فيــه. كما أن عملهم هو التسبيح والتهليل وكان يمكن أن يكونوا أفضل من البشــر، ولكن الله تعالى أراد للمجتمع البشرى أن يكون شــيئا آخــر غــير مجتمــع الملائكة، أراد له أن يتعرض للإغواء – كأقوى ما يكـــون الإغــواء – ثــم ينتصر على هذا الإغواء بفضل الإيمان وبهذا الانتصار فضل البشــر علــى الملائكة الذين لا يتعرضون لأى إغواء ..

وقد أشار القرآن إلى هذه القوة الفعالة فى المجتمع البشرى "بما فيــه المجتمع الإسلامى" فى عديد من الآيات بصورة صريحة، وجازمة ووصلــت إلى الدرجة التى يمكن أن يقال فيها إن الله تعالى أعطى الشــيطان "كــارت بلانش" كما يقولون أو حتى أمره بهاء وزاد له من السلطة ليقوم بدوره فـــى غواية الإنسان وأن هذه السلطة التى تضم المجالات العديــدة التــى ذكرهــا

القرآن ستبقى وستستمر إلى يوم الساعة، وكأن القرآن يريد أن يقـــول إنـــها عنصر دائم وباق، ولا يمكن للمجتمع البشرى أن يتحرر منه إلى يوم الساعة

واقرا مثلاً ..

- ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسـجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ . {١١ الأعراف}
- ﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى مـن نــار وخلقته من طين﴾ . {١٢ الأعراف}
- ﴿قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيـــها فـاخرج إنـك مـن الصاغرين﴾ . {١٣ الأعراف}
- ﴿قال أنظرنى إلى يوم يبعثون﴾ . {١٤ الأعراف}
- ﴿قال إنك من المنظرين﴾ . {١٥ الأعراف}
- ﴿قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ . {١٦ الأعراف}
- ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ . {١٧ الأعراف}
- ﴿قال أخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكـم أجمعين﴾ . {١٨ الأعراف}
- ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسـجد لمـن خلقت طينا﴾ . {٦١ الإسراء}
- ﴿قال أرأيتك هذا الذى كرمت علي لئن أخرتـن إلـى يـوم القيامـة لأحتنكن ذريته إلا قليلا﴾ . {٦٢ الإسراء}
- ﴿قال أذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفورا﴾ . {٦٣ الإسراء}

- ﴿واستفزز من استطعتَ منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا﴾ .

{٦٤ الإسراء}

- ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا﴾ . {٦٥ الإسراء}

لقد كانت قضية "الشر" ووجوده فى المجتمع من المسائل التى شغلت الفكر الدينى من أقدم العصور حتى لقد قامت أديان على أساس وجود إلهين إله للخير، وإله للشر أو إله للنور، وآخر للظلام، وهذا أكبر دليل على قصور الفهم البشرى عندما يتصدى لقضية الألوهية فهو يجعلها نوعا من السجال بين قوتين لن يسفر بالطبع إلا عن صراع. فى حين أن الفرض الذى قدمه الإسلام هو الحل الأمثل فقد أبرز الشيطان – ما بين الحقيقة المادية والمجاز النظرى – كرمز للشر الذى يتأتى بالدرجة الأولى من الاستعلاء والأثرة والأنانية وغلبة الذات عندما رفض السجود لآدم بحجة أنه خير منه ﴿خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾ وأن هذه الطبيعة فيه قد دفعته لإغواء آدم، ومن ثم فإن الله تعالى ترك له هذه المهمة التى خلق لها أو التى اختارها، ولم يخش على المؤمنين لأن هداية الأنبياء تحصنهم من هذه الغواية، وفى الوقت نفسه فإن هذه الغواية، وما ستأخذه من صور وممارسات تثير فى نفوس الصادقين قوة المقاومة فيزدادوا إيمانا، أما من هم دونهم فأمامهم درجات عديدة من السلوك التى يخلطون فيها عملا حسنا بعمل سيئ ، وقد لا تفوتهم التوبة بعد الندم، فإذا استسلموا تماما أو حتى تمادوا فإنهم يكونون مثلا مروعا يردع المؤمنين من أن يترددوا فيه. ولم يكن هناك مناص من هذا كله. لأن الشر على سوئه كان لازما لكى تبرز خصيصة الخير، فبضدها تتبين الأشياء كما فطن إلى ذلك الشاعر، ومن هنا كان لابد من وجود الشيطان، ولابد من أن يقوم بدوره الرجيم، ما دام الله تعالى قد أراد للحياة الإنسانية أن تكون دار ابتلاء واختبار وأن يقوم المجتمع

على أساس الحرية والاختيار، ولهذا يكون أقل نقاء من مجتمع الملائكة. الأمر الذى جعل الملائكة تعجز عن فهم حكمة استخلاف الله لهذا المخلوق، ولكن الله تعالى يعلم ما لا يعلمون .

وأوضحت آيات عديدة أن لا أحد يفلت من غواية الشيطان حتى الأنبياء أنفسهم، بل لقد بدأت الحياة الدنيا نتيجة لغواية الشيطان الأولى لآدم ثم تواصلت هذه الغواية مع ظهور الأنبياء فقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ويحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾ {٥٢ الحج} ..

وتحدث القرآن عن أخطاء للأنبياء فى غير ما كلفوا بتبليغه فقال عن آدم ﴿فنسى ولم نجد له عزما﴾ وعن سليمان ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا﴾ وقال عن يوسف ﴿ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه﴾ وروى عن موسى ﴿قتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا﴾ وقال عن ذى النون ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبا لربه فظن أن لن نقدر عليه﴾ وقال عن محمد ﷺ ﴿ووضعنا عنك وزرك الذى انقض ظهرك﴾ ﴿وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره، وإذا لاتخذوك خليلا. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ﴾[1].{٧٣ – ٧٤ الإسراء} ..

ولم ينف الأنبياء أنفسهم ذلك فكلهم مثل يوسف ﴿وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾ فالأنبياء جميعا محفوفون برعاية الله وهذه الرعاية تجعلهم ينتصرون على الشياطين، ولكنهم بدونها يصبحون كبقية البشر. وقد قال النبى إن الشيطان يسرى من الإنسان مسرى الدم، وقال إن لكل واحد شيطان فلما سألوه "حتى أنت يا رسول الله" أجاب

---

(١) لا نجهل ما تذكره كتب التفسير عن هذه الآيات. لكن ظاهر الكلمات والسياق يأباها. وليس الأنبياء بعد بمعصومين لولا رحمة الله لهم وفضله عليهم .

بالإيجاب ولكن الله تعالى نصره عليه – فلا يتصور، والأمر هكذا أن يخلو مجتمع بشرى – إسلامى أو غير إسلامى من غواية الشيطان لأنه فى النهاية مجتمع بشرى وليس مجتمع ملائكة [1]

بل لو أخذنا بالقياس فإن أعظم ما يفترض أن يقوم به الشياطين يكون فى مجتمع إسلامى، لأن مهمة الشياطين هى فتنه المؤمنين .

وأبرزت الآيات المجالات التى يمكن للشيطان أن يؤتى الإنسان منها وهى المال، والنساء، بالإضافة إلى السلطة التى تعود بذرتها إلى الأنانية والكبرياء، والاستعلاء، والزهو، وحب السيطرة الذى يتجلى عادة فى مجال الحكم، ويفسده .

وطبقا لهذا لا يكون مستغربا أن تظهر صور عديدة لممارسات خضعت للشيطان فى مختلف الحالات. فيظهر الاستبداد فى السياسة، والتفارق فى الثروات ما بين الذين يتضورون جوعا والذين ينتفخون ثراء، ويلوث النفاق والكذب الأقوال والأفعال وتظهر "الكاسيات العاريات" ليس فحسب على الشواطئ، ولكن فى شوارع المدينة، وتنتشر دور السينماء والمسارح، والملاهى، وتروج الصحافة الصفراء، وروايات الجنس والغرام الخ ..

ولا يتصور مجتمع بشرى لم يمارس فيه الشيطان مهمته فى هذه المجالات، ونرى شواهد لها فى كل المجتمعات، والفرق بين المجتمع

---

(٢) لقد ثار التساؤل عن مصير الشيطان فى اليوم الآخر، فهو فى فتنه للناس وإشاعته المنكرات إنما كان يعمل برخصة من الله، وإن كان بالطبع قد أخطأ خطأ فاحشا عندما رفض إطاعة الأمر بالسجود، ولكنه ما كان يمكن أن يعصى الله خارقا إطار القدرة الإلهية. ومع أن الحديث عن هذا هو مما يخرج عن إطار الموضوع، وما نصح دائما بتجنبه باعتباره يتعلق بالمشيئة الإلهية، وأنه من الغيب الذى لا يكون لنا ما نقوله عنه إلا ما يقوله القرآن، ولكن لعل الله تعالى أعطانا إشارة عندما خلقه من نار، وعندما ما يقذف به فى النهاية فى النار ليذوب وينتهى .. من النار بدأ، وإلى النار يعود ..

الإسلامى وبقية المجتمعات البشرية أن المجتمع الإسلامى لديه من القوى الإيمانية والخيرة ما يحد من مدى فجور وانتشار هذه الموبقات وأن يصمد بدرجات متفاوتة أمام هذه المهالك والمغريات .

وكان من ذكاء الشيطان أن أخفى عن المسلمين القدامى والمحدثين أهمية ومنزلة الحكم، والآثار المدوية لإفساده بحيث لم تكن محل ملاحظة وتعقب المصلحين، قدر ما ضخم من أهمية آثار الافتتان بالمرأة، وضرورة العمل بكل الطرق للحيلولة ما بين المجتمع الإسلامى وهذا البلاء المستطير .

وكان هذا الموقف هو الذى سمح لمعاوية بأن يحول الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض، مع حرص المجتمع على الوقوف من المرأة موقفا ظن أنه الموقف الإسلامى وكان هذا دليلا لا يدحض على غفلة المجتمع الإسلامى وتخلف تقديره، واختلال الموازين فى وقت مبكر جدا، ولأسباب عديدة لا يتسع المجال لتفصيلها، ليقضى الله أمرا كان مفعولا وتحقق نبوءة الرسول عن تحلل عرى الإسلام عروة عروة "فأولها الحكم وآخرها الصلاة"

ونحن لا ندين الأسلاف فقد كان هناك أسباب عديدة أدت إلى هذا الموقف ولكن ما نرى أنه يستحق اللوم هو موقف الفقهاء المعاصرين الذين كان عليهم أن يروا ما دق على أسلافهم، أو أن يتحرروا من قوى الرواسب التى تحكمت فى الأسلاف .

فما قيمة الضرر الذى تحدثه امرأة ترقص وهى ترتدى زيا يكشف أكثر مما يحجب أمام قرارات حاكم مطلق يذل ويتحكم فى معارضيه. على الأقل إن إساءة المرأة لن تلحق إلا بأفراد جاءوا بمحض إرادتهم، بل دفعوا أجرا للدخول لكى يشاهدوا هذه المنكرات ..

وما قيمة مسرح أو مرقص يصخب رواده ويرقصون أو يشاهدون أفلاما جنسية إزاء وضع يقضى باستغلال العمال وتشغيلهم ساعات طويلة

تنهك صحتهم لقاء أجور هزيلة لا تفى بحاجة الأفواه الجائعـــة، أو يســـتخدم وسائل الاحتكار والغش لمضاعفة أرباحه .

إن مجرد وجود المشاهد التى تثير الأغراء يختلف عــــن الوجـوب الذى يتضمنه أى قرار سياسى فوجود مشاهد الفتنة والأغراء لا يقوى وحــده على جذب المشاهد، لأن عددا كبيرا من العوامل قد يحول دون تلـــك مــن صلابة، أو مشغولية، أو خوف الخ.. ولكن قرارا سياســيا يصــدره الحــاكم يطبق فورا وعلى جميع من ينطبق عليهم هذا القرار، حتى لــو كــانوا كــل المواطنين، وقد يجعل الأغنياء أكثر غنى، والفقراء أكثر فقـــرا وقــد يشــل الحريات ويفرض الخوف والرعب والإرهاب على الناس ويمتهن الكرامـــات ويقهر النفوس، كما يحدث فى معظم نظم الحكم فى الدول الإســـلامية قديمـــا وحديثا .

أن الرسول عندما رأى أعرابا فى أسمال "أحمر" وجهه "كأنما فقـــئ فى وجهه حب الرمان" لأن مشاهدة هذه الأسمال يثير الخجل، ولـــم يســـتعد الرضا إلا بعد أن خطب وانهالت عليهم الملابس من كل حدب وصوب ولكن الإسلاميين المحدثين لا يستشعرون خجلا أمام مظاهر الفاقة المدقعة.. وإنمـــا يحسونه أمام امرأة عارية ..

وهكذا فإن غواية الشياطين لابد وأن توجد فى المجتمـــع الإســـلامى صورا من التعديات والممارسات المخالفة والنابية عن أدب الإسلام ســـواء كان فى شهوات الجنس أو دعوات الثراء والاستزادة من المـــال. أو التظـــم التى تسخر الجماهير لخدمة الحاكم وتفرض حكم القوة.. ويفترض أن يكـــون لدى المسلم الكياسة والفطنة للتمييز بينها على أساس خطورتها على المجتمـــع وآثارها الوبيلة وأن يمنح الأولوية لكل ما يمس الحكم، ويتلوه ذلك ممارســـات الإثراء والتكاثر وأخيرا فتنة المرأة والجنس، وله بالطبع حق مقاومتها جميعـــا بكل الطرق، أو التحصن من الوقوع فى شراكها وقد يجد فيها ما يستثير فيـــه التمسك بدعوته والحرص عليها.. وعليه فى الحالات التى يعجز فيـــها عـــن

ضبط نفسه ويتغلب عليه الضعف. أن يستدرك هـــذا بالتوبـة والاستغفار والقيـام بالأعمال الصالحة التي تجب السيئات .

وهذا الأسلوب يختلف جذريا عن أسلوب الفقهاء في سد باب الذريعة ومحاولة حماية الفرد المسلم في "صوبا" تبعده عن المغريات، وقــد عالجنـا تلك النقطة في كتابات عديدة وأوضحنا أفضلية الأسلوب القرآنـي وحيويتـه وفعالية على أسلوب سد الذريعة ..

* * *

وقد يقول قائل ما هي الحكمة التي أرادهـا الله تعـالي مـن هـذه "التمثيلية" فنقول هل هناك أروع وأعظم من إيجاد هذا المجتمـع الإنسـاني العظيم الذي يضم المليارات كل واحد له شخصيته المنفردة، وله اهتماماتـه الخاصة، وكل هذه الصور الرائعة، المتوهجة، من نشاط الناس فـي أربعـة أركان الأرض وأنشطتهم من صناعة وزراعة وفنـون وآداب واكتشـافات واختراعات ؟ أن المصور الذي يرسم أو النحات الذي ينحت مائـة شـخص مثلا كل واحد مختلف عن الآخر يعد عبقريا فما بالك بالذي يخلـق بـالفعل الملايين بل البلايين ويعطيها القوة والحيـاة والعقـل والذكـاء والعواطـف والشهوات، والشخصية الخاصة. هل هناك أروع مما وصل إليه المجتمـع أو أعظم من صور الجمال الذي توصلت إليه الفنون أو أدق وأعجب من أسـرار الصناعة والإدارة والتنظيم التي تسير عجلة هذا المجتمع في نعومة ويسر .

لقد أسلم الله تعالى هذه الأرض للإنسان فأضاف إلى جمالها الـبري الطبيعي جمالا حضاريا أضاء كل جنباتها بالنور وغرس في تربتها الزهـور وأقام على أرضها ناطحات السحاب والمصـانع التـي تصنـع الطـائرات والسيارات وأجهزة التلفاز والصواريخ التي تنطلق محررة لأول مـرة مـن إسار الجاذبية الأرضية وتصل لأول مرة إلى كواكب أخرى غـير الأرض.

وأقام الجامعات ومعاهد الأبحاث والمستشفيات ودور الفنون علـى اختلافـها من موسيقى أو تمثيل أو سينما.. وهناك الملايين والملايين من البيوت فـي كل منها أسرة تستمتع بالدفء والحب والسعادة، وإذا كان هذا ليس حظ كـل البشرية، وإنما هو مقصور على الدول المتقدمة، فليس هناك ما يقـف أمـام بقية الدول للوصول إلى هذه الدرجة كما قد يكون لدى هذه الدول من ديـن أو فكر أو قيم ما تفتقده الدول المتقدمة ..

وعندما يجاوز التطور البشرى حده، ويبلغ غايته بحيث يظنَ الإنسان أنه أصبح سيد الكون عندئذ يؤذن الله تعالى بنهايته لأنه جاوز طوره وقـدره، ومن رحمة الله أن هذه النهاية لا تعنى الفناء والعدم وإنما هى مقدمـه لعـالم آخر يختلف اختلافا تاما عن عالم الحياة الدنيا عالم تتجلى فيه قدرة الله التـى لا يحدها حد ولا يشوبها نقص .

فكيف لا يكون فى هذا كله من بدأ الخلق حتى أعادته حكمة وغايـة وروعة تأخذ بالألباب .

الفصل السادس

آليات ضبط التعددية

قد يبدو أن التعددية ليست فى حاجة إلى آليات لضبطها لأن طبيعة التعددية تسمح بكل التوجيهات والتيارات، وبهذا يمكن لكل ناقد أن ينتقد ولكل مصلح أن يصلح، فهى كالحرية تصلح أخطاءها وشططها بنفسها ولكن التجربة تعلمنا أن الآليات الطبيعية تتعرض لعوامل ذاتية عديدة تحولها عن غايتها أو توهنها، وما النقص فى الرأسمالية – وهى تطبيق الحرية فى الاقتصاد – إلا أنها اعتمدت كليه على آليات السوق وقوانينه كالعرض والطلب والمنافسة وغيرها التى ظهر أنها غير كافية .

كما دفعت الديمقراطية غاليا ثمن افتقاد الضوابط إذ نشأت بين أعطافها الدعوات الشمولية التى أودت بها ولم ينفعها انفتاح تعدديتها أو انفساح حديتها، لأن عملية الهدم أسهل من عملية البناء ولأن استهواء العواطف والشهوات أكثر تأثيرا من استهداء العقل واستلهام الحكمة. وتعلمنا المباريات الرياضية ضرورة وجود "قواعد اللعبة" التى تحول دون انحراف اللاعبين، كما نجد لكل لعبة حكمها الذى يطبق هذه القواعد ويؤاخذ كل من ينحرف عنها ولم يقل أحد إن قواعد اللعبة ووجود الحكم يضيقان من الحرية أو يعرقلان اللعبة. فالكل يجمع عليها دون استثناءات ذلك أن وجود قواعد

اللعبة واحترامها هو وحده الذى يكفل مضى اللعبة واستمرارها ونجاحها ويحول دون تعثرها وانحرافها .

من هنا فإن من المهم التثبت من وجود آليات لضبط المعالجات لا تعد حجراً على التعددية، ولكن تنظيما لها حتى لا تهدر التعددية نفسها بنفسها أو ينتهى الأمر فيها إلى مجرد عرض الآراء. فإن الغرض من التعددية – فى النهاية – التوصل إلى أوضاع تحقق الأهداف المطلوبة ويكمل بعضها بعضا، وبهذا يتحقق الوصول إلى الهدف وينتفى أن تتبدد الجهود سدى أو أن تحطم بعضها بعضا، ولكى تظل المعالجة مستمرة لضمان حسن التطبيق أو علاج ما يكشف عنه التطبيق من مآخذ .

توفر درجة من الوعى السليم بالإسلام ..

للتعددية فى مجتمع إسلامى طابعها الذى يميزها عن التعددية فى مجتمع غير إسلامى. لأن الخصوصية تفرض نفسها، وتعد من مقومات الشخصية العامة وليس الغرض من التعددية طمس هذه "الشخصية" الإسلامية، أو المصرية التى تعد خصوصية أخرى ولا تتعارض الخصوصية الإسلامية مع الخصوصية المصرية، فهذه الأخيرة تقدم إضافة خاصة، وهما معا لا يتعارضان مع التعددية .

ويعد توفر قدر من الوعى الرشيد بالإسلام من العوامل التى ترشد التعددية وتجنبها الانحراف نحو اتجاهات قد تكون سليمة موضوعيا، ولكنها غير مواتية فى مجتمع إسلامى أو مصرى أو أنها تؤدى إلى إذابة أو طمس لخصوصية تمثل إضافة وتمييزا.. ويفترض أن يغرس الأبوان، وبصفة خاصة الأم بذرة هذا الوعى فى الأبناء. ثم تتولاه المدرسة ووسائل الإعلام بتوسيع إطاره، فما لم يفهم الإسلام فهما رشيدا مرنا متفتحا. فقد يؤدى هذا

إلى فض التعددية، أو الضيق بها أو العمل على أن تأخذ لونا معينا أو حـــداً أقصى لا تتجاوزه مما قد يحول دون ظهور التعددية أصلاً .

وما بين الخصوصية التي لابد وأن تكـون لتعدديـة فـي مجتمـع إسلامي، وما بين العمومية التي تفترضها طبيعة التعددية الحـرة التـي لا تعرف حدوداً أو قيوداً يوجد موطأ القدم الذى تقـف عليـه التعدديـة فـي مجتمع إسلامي / مصري، ويتفاعل من منطلق لا يضيق بـه الإسـلام بـل يمكن القول إنه إسلامي خالص هو حرية الفكر التي إن وصلت إلى الإطلاق في القول والكتابة فإنها عندما يراد تطبيقها لابد وأن تصطـدم بضـرورات الواقع التي قد تكون من القوة بحيث تغلب من يغالبها .

ويحل الإشكال أن الإيمان ما دام صادراً من أفراد، ومـا دام يتبـع الطريقة التي تمليها "قواعد اللعبة" أعني أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة فإن درجة من الإصلاح ستتحقق وستتخلخل الصفوف العريضة للمعـارضين وتتأثر الرواسب المذهبية، وستكسب الدعوة أنصـاراً ومـع مـر الزمـن، وبمواصلة الجهود سيمكن التوصل إلى الانتصار في النهاية .

وفي الوقت نفسه فإن حرية المعارضين في عرض وجهات نظرهـم في الحفاظ والاتباع وضرورة ملاحظة اعتبارات عديدة ستحول دون انـزلاق آراء الذين يريدون الإصلاح والتحرر من إسار الماضي إلـى درجـة مـن الشطط التي لا يمكن التحكم فيها مما قد يؤدي إلى حالة من الفوضى والتحلل يمكن أن تنتقل من مجال الفكر إلى مجال العمل ويكون لها نتائج سلبية سـيئة على اقتصاد وأوضاع البلاد وهو أمر غير مطلوب بالطبع .

وعندما يكون التعصب وضيق الأفق مستوليا على جماهير غفـيرة – كما هو الحال للأسف في معظم الدول العربية والإسـلامية – فـإن عمليـة التعددية ستكون شاقة وقد تتحول من السجال الفكري إلى العراك اليـدوي أو

التهديد بالقتل وليس هناك من حل "مشفي" جاهز، وقد يكون أقــرب الحلــول هو إبراز توجيهات القرآن الكريم ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة ســواء بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا أربابــا مــن دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ . (٦٤ آل عمران) ..

كما يؤدى إلى تقبل التعددية التعريف بآداب الائتلاف والاختلاف فــي الإسلام التي أشرنا إليها في الفصل السابق واستيعابها تماما .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ..

يعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – أحد ضمانـــات التعدديــة لأنه ليس إلا ترخيصا بحرية الفكر وتأكيدا عليها إيجابا وسلبا – ولو أنعـــدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكان من المحتمل دخـــول منكـرات لا عداد لها دون احتجاج أو نقد ولكان من الممكـــن لبعضـــها القضـــاء علـــى التعددية نفسها، ولكان من الممكن أيضا أن لا يوجد المعروف، أو أن تكـــون ممارسته ممارسة سيئة دون أن يوجد من يصحح السقيم ويستكمل الناقص أو تكون القاعدة في هذا المجتمع هي "الانا مالية" "أنا مالي" ..

ولكن إساءة فهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمكن أن تجعــل منه أداة لوأد التعددية، أو الحيف عليها لا أن يكون ضمانا لها. عندما يتخـــذه أنصار النظرة الأحادية، وأصحاب شعار " قـــولا واحـــدا " ســلاحا بتـــارا يسلطونه على كل صاحب نظرة مختلفة، وقد لا يتسبب عن هذا شر مستطير ما دام محصورا في إطار الفكر (أو اللسان – كما يشير الحديث المشهور "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع بلسانه، فإن لم يســـتطع فبقلبـــه وهذا أضعف الإيمان) ولكن يغلب أن ينتقل من إطار الفكـــر واللســـان إلـــى مجال اليد والعمل لأن الحديث جعل الأولوية للتغيير باليد، وإنما جعل اللســان والقلب عند عدم الاستطاعة .

لقد جاءت صياغة الحديث الذى يعد عماد هذا التوجيه مختلفة عن صياغة القرآن. فهذه الأخيرة تقتصر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى حين أن الحديث يتضمن تغييرا لا مجرد أمر ونهى وحدد له ثلاث مستويات هى اليد، واللسان والقلب، ولابد لاختلاف هذه الصياغة من مبرر.

فى نظرنا أن تضمن الحديث التغيير باليد إنما يراد به حالات معينة لا يكون فيها بديل آخر. فإذا وجد أحدنا فردا يحاول القيام بجريمة ما كأن يشعل نارا فى بيت أو يضرب حيوانا بقسوة.. أو حتى يحاول الانتحار عندئذ يصبح اللواذ باليد أمرا لا مناص عنه.. أما ما يورده الفقهاء عن سلطة للفرد على آخرين تعطيه حق التأديب كسلطة الأب على الابن والزوج على الزوجة، فهذا ما لا نفضل الخوض فيه تأسيا بالرسول الذى ما ضرب أحدا قط، ولا خادما .

ونعتقد أن تفسير حديث "من رأى منكم منكرا.." لابد أن يستصحب الآيات العديدة التى حدد الله تعالى للرسل طريقة التبليغ، وضرورة الاقتصار عليه، والحذر من أن يأسى لرفض المشركين. أو أن يحاول اكتساب الإيمان بمختلف الطرق. فمن غير المعقول أن يتصور أحد من عامة المسلمين أو خاصتهم أنه أكثر غيرة على الإسلام من الرسول، أو أن عليه أن يفعل أكثر مما وجه القرآن رسوله ..

ويلحظ هنا أن القرآن أكد هذا المعنى مرارا وتكرارا وأوضح للرسول ..

- ﴿ليس عليك هداهم، ولكن الله يهدى من يشاء﴾ {٢٧٢ البقرة}
- ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى لمن يشاء﴾ {٥٦ القصص}

* ﴿أفمن زين له سوء عمله فرءاه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما تصنعون ﴾

{٨ فاطر}

* ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ {٩٩ يونس}

وحدد القرآن للرسول ما يفعله عند إعراض من يدعوهم ..

* ﴿وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم. أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون﴾ . {٤١ يونس}

* ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شئ وكيل﴾ {١٢ هود}

* ﴿وإن ما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ . {٤٠ الرعد}

* ﴿فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ . {٩٤ الحجر}

* ﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين﴾ . {٨٢ النحل}

* ﴿نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ . {٤٥ ق}

* ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون، أتواصوا به بل هم قوم طاغون فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ .

{٥٢ – ٥٥ الذاريات}

* ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل﴾ . {٦ الشورى}

* ﴿أما من استغنى فإنت له تصدى وما عليك ألا يزكى﴾ .

{٥ – ٧ عبس}

* ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر﴾ .   {٢١ – ٢٢ الغاشية}

وهذه الآيات التى تقصر صلاحيات الرسول على التبليغ دون محاولة الهداية تقرر حق الآخرين فى الرفض، وأرجاء حسابهم إلى الله تعالى يوم الدين، وتوجه الرسول لأن لا يستشعر غضاضة من ذلك أو يحس ضيقا لأن الله تعالى يعلم ما لا يعلمه من طبيعة النفوس التى جبلها الله، وأن الإلحاح فى الوعظ أو الجذب قد يوجد أثرا عكسيا. في حين أنه لو ترك وشأنه فربما يعيد التفكير فيتوب ويتوب الله عليه وقد يعمل الكثير من الحسنات ليكفر عن سيئاته ويجعل الله تعالى سيئاته حسنات.. فضلا عما يعلمه الله من غيب لا يعلمه الرسول، فقد يكون لهذا الرافض مستقبل فى الإيمان وخدمه الإسلام، وهل هناك من كان أشد عداوة للإسلام – فى فترة ما – من خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وقد أصبحا من قادة الإسلام الإعلام .

هذه كلها آفاق قد لا يلم بها الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر خاصة إذا لم يكن عميق الخبرة بالنفس الإنسانية، وهى صفة قلما تتوفر لعامة الناس، وإنما تتوفر لديهم بدلا منها الحماسة والاندفاع. فهذه الآيات ترسم للآمر بالمعروف والنهى عن المنكر الموقف الأمثل بحيث يعرف أن دوره ينتهى بمجرد الأداء باللسان أو القلب. أما تطبيق التغيير باليد فلا يكون إلا فى حالات الضرورة المحددة التى أشرنا إليها آنفا، وفى غير هذه الحالات تكون أى محاولة لتغيير المنكر باليد مجافية تماما لروح الآيات، ولن يكون الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أكثر حرصا على الإسلام من الرسول الذى كلفه الله بحمل رسالة الإسلام ولن تكون عاطفته أشد وحرصه على الهداية أعظم، ومع هذا فقد وجهه القرآن ﴿وما عليك ألا يزكى...﴾ .

فهذه الآيات هى التى تفسر طريقة فهم وتطبيق حديث تغيير المنكر وهى حاكمة عليه، وضابطة له لأن من أعسر الأمور التفرقة ما بين النية الموضوعية الخالصة فى التغيير، وما يمتزج بها امتزاج اللحم والدم من مشاعر شخصية، وانطباعات خاصة ورغبة فى النهى والأمر "والشخط والنتر" وهى تعود إلى الزهو والغرور، وهما من الموبقات ، ومحاولة تلبيس المعنى الخاص الثوب العام، وهى صورة من النفاق النفسى الذى يتطرق إلى النفس بأخفى من دبيب النمل ..

ومما يلفت الانتباه أن كل الكتابات التقليدية عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتغيير المنكر باليد انحصرت فى تدمير المعازف وما يمت بصلة إلى الموسيقى وتحطيم أوانى الخمر وإلزام النساء بالنقاب والخمار الخ.. وقد استهلكت هذه المجالات الثلاثة جهود كل الكاتبين عن هذا الموضوع من الفقهاء القدامى حتى الكتاب المعاصرين، ولم يتحرك لأمر بالمعروف أو إنهاء عن المنكر لمقاومة استبداد الحكام الطغاة.. ولم يفكر أحدهم فى التنديد باستغلال الأغنياء للفقراء ووجود من لا يملك قوت يومه.. ومن يوجد لديه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ولم يثر ثائر على الجهالة والأمية فى حين أن أول كلمة فى الإسلام كانت اقرأ.. وأن رسالة الإسلام كانت إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأنه عندما أراد أن يصم العهد السابق عليه أطلق عليه "الجاهلية" .

وهذه الاتجاهات بالإضافة إلى ما أشرنا إليه فى الفقرة السابقة عن ادعاء الغضب لله والثورة لمحارمه ودخول العامل الذاتى فى ذلك هو ما يوضح لنا أن الصورة فى أذهان "الإسلاميين" سواء القدامى والمحدثين عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تختلف عما أمر به القرآن وطبقه الرسول . مما يوحى بأن ما يجاوز الأمر باللسان أو النية فى القلب إلى ممارسة تغيير باليد منسوخ بنص الآيات القرآنية، باستثناء حالات

ونرى أن هذه صورة سقيمة لتطبيق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإن كانت وليدة طبيعية للمناخ السعودى وللفقه التقليدى (البدوى) السائد فيها .

أما الصورة المثلى فيفترض أن تختلف شكلا وموضوعا. ففى الشكل تأخذ طبيعة جماعية وليست فردية، وذلك بتكوين الجمعيات والهيئات لذلك. لأن العمل الفردى، وأن كان له أهميته التى يحرص عليها الدين ويحميه من الأفتيات باعتباره ممثل الحرية الفردية الثمينة، والتى هى أساس كل الحريات. إلا أنه لم يعد – أى العمل الفردى – فعالا فى عالم التنظيم والتنهيج.. وأما فى الموضوع أو المضمون فيجب التركيز على الأمر بالمعروف أكثر من النهى عن المنكر، ليس فحسب اتباعا للترتيب فى الآية، ولكن أيضا لأن الإيجاب أفضل من السلب. ويغطى هذا المضمون مجالات مثل إشاعة الثقافة والمعرفة والإلمام بالمهارات المطلوبة للمجتمع وتعليم الجاهلين، وقضايا العدالة الاقتصادية والتكافل الاجتماعى الخ.. وقد يؤدى ظهور هذه الجمعيات وحديثها فى الدعوة إلى تكوين جمعيات معارضة، وبهذا تتحقق التعددية ويظهر الرأى والرأى الآخر ويتصارعان فى مجال الفكر ويتحقق الثراء للقضية، ويظهر فى النهاية الرأى الأفضل، حتى وأن لم ينفرد بالساحة لأن هذا ينافى طبيعة التعددية .

مقتضيات التعددية فى المجتمع الإسلامى :

إذا أردنا من باب التحديد تعيين ما تستتبعه التعددية فى مجتمع إسلامى لقلنا إن أول قاعدة تنبثق منها التعددية نفسها هى الحرية كمنطلق لكل خطوة فى النشاط الفردى والجماعى. وقد أوضحنا أن الإسلام – على خلاف ما يظن الناس أو يذهب إليه كثير من الدعاة – لا يتناقض مع فكرة الحرية كأصل والتعددية كمظهر وتطبيقه لها فإن توحيد الله لا يحتمل تأويلا ويستتبع التعددية فى كل ما عداه، كما ذكرنا، والحرية لها ما يقابلها فى "اللغة" الدينية

وهو مبدأ البراءة الأصلية وأن الأصل فى الأشياء الحل ما لم يرد بتحريمه نص صريح من القرآن .

فضلا عما توصلنا إليه من أن الحكمة أصل من أصول الإسلام يجب أن يستلهم عن وضع السياسات، وهى ما يبعد التعصب وضيق الأفق والاقتصار على ما ورد فى الكتاب لأن النص عليها وارد فى الكتاب نفسه .

ونطاق الحرية فى الإسلام فى مجال الفكر والاعتقاد لا يحده إلا تحول ممارسة هذه الحرية إلى ممارسة قذف وسب أو جعلها وسيلة ابتزاز. أما أى حرية تقوم على منطق وتستند على حجة فلا يجوز أن يوضع عليها قيد، وبالنسبة للحريات الاقتصادية والسياسية فإن التحفظ الوحيد عليها هو العدل حتى لا تتحول الحرية إلى استعباد الجمهور أو التحكم فى الشعوب .

والأخذ بالتعددية فى المجتمع يستتبع وجود صور من التعددية فى المجال السياسى كتداول السلطة وحرية المعارضة وتقييد صلاحيات الحاكم بإرادة الشعب الخ.. وهى تستتبع فى المجال الاجتماعى ظهور منظمات المجتمع المدنى وهيئات الإصلاح وكل ما يرى بعض الناس أنه جدير بأن يعالج عبر هيئة تنظم هذه المعالجة وتعطيها طابعا جماعيا كما يجب أن تكون هناك صحافة حرة تماما باعتبارها "رسالة" فكرية بحيث لا يجوز حتى للمؤسسة الصحفية نفسها أن تحد من هذه الحرية أو تضع القيود عليها. كما يفترض أن توجد المنظمات النقابية طبقا لما يراه العمال أنفسهم باعتبار أنها هيئات يؤسسونها بأنفسهم للدفاع عن حقوقهم ويدخل فى هذا كافة الحريات النقابية التى نصت عليها الاتفاقيات الدولية .

وهناك المجال الحساس للفنون والآداب من شعر أو رواية أو قصة أو تمثيل أو سينما أو موسيقى أو أغان أو رقص.. فكل هذه يجب أن ينظر إليها باعتبارها وسيلة للتعرف على ملكات النفس الإنسانية، وما يمكن أن تقدمه من عطاء وإضافة ونقد وإصلاح أو حتى إشباع لعواطف والاستمتاع

بلهو.. فهذه كلها يجب أن تكفل لها الحرية رغم ضيق كثير من الدعاة الإسلاميين الذين يرون في بعضها إشاعة للفحشاء.. وقد عالجنا هذه النقطة عندما تعرضنا لأثر غواية الشياطين التى لا مناص منها وقد أوضحت التجربة وطبائع الأشياء أن فرض الرقابات - كائنة ما كانت الحجة - يوجد مفاسد أكثر من التى أريد تجنبها ومن ثم فلا يجوز أن يكون عليها رقابة إلا إذا وجد الرأى العام أن بعضها يمتهن لمشاعرهم، ويطلب بالتدخل

ونحن نرى أن الخطة المثلى أن يترك هذا المجال لأصحابه يتحملون مسئولياته وتقع عليهم أوزاره، كما يستحقون أمجاده، أما الدولة فلا تتدخل، سلبا ولا إيجابا وتنفض يديها منه، وأما الفقهاء فلديهم مندوحة اعتباره انعكاسا للفجور الذى ألهمه الله تعالى النفس الإنسانية أو أنه حرث الدنيا ومتاع العاجلة الذى يتولى الحساب فيه الله تعالى يوم القيامة .

وفيما نرى، فإنه ما دام أصل التعددية - وهو الحرية - هو ما يتقبله الإسلام فإن التعددية ومقتضياتها لا تختلف فى المجتمع الإسلامى عما هى عليه فى المجتمعات الأخرى إلا فى المدى والدرجة وليس فى النوع أو الكيف. لأن الإيمان بالقيم الإسلامية يحول دون الجموح والشطط الذى تتصف به مقتضيات التعددية فى بعض المجموعات الأوربية الحديثة.. لأن المجتمع الإسلامى، وإن كان جزء من المجتمع البشرى الذى يخضع لقوانين عامة - فإنه مجتمع متميز له خصائصه التى ترتفق على الصفة العامة له. وإن لم تجرده منها ...

من مكتبة الإحياء

- نحو فقه جديد
  في ثلاثة أجزاء ..
- استراتيجية الدعوة الإسلامية فى القرن ٢١
  كما تراها دعوة الإحياء الإسلامى ..
- مطلبنا الأول هــو الحـــــرية ..
- تثوير القرآن ..

يصدر قريبا

الإسلام دين وأمة وليس دينا ودولة

الكتاب الذى سيحسم قضية الحكم فى الإسلام .

✡✡✡

ملحق

عن دعوة الإحياء الإسلامى

ملحق
عن دعوة الإحياء الإسلامي
(١)
فكر وفقه دعوة
الإحياء الإسلامي

أشرنا ببعض الإجمال إلى تميز دعوة الإحياء الإسلامي على غيرها، وقد آن الأوان لبسط هذه الفكرة وإقامتها على قواعدها .

فالدعوات الإسلامية قد تدخل ميدان الإصلاح بفكر سلفي فلا تجدد شيئاً. بل تفرض القديم على الجديد وتتمسك بما جاء به الفقهاء لأنهم لم يتصوروا أبداً أن من الممكن الاستغناء عنهم، باختصار تريد أن تعيد الساعة إلى الوراء، وتأبى طبائع الأشياء ذلك. ومن ثم فعملها كله مردود وليس إلا صورة من التماحك مع العصر.. وقد تدخل لعلاج ناحية واحدة، وقلما يمكن تحقيقه لأن الناحية الواحدة مرتبطة ببقية النواحي ولا يمكن إصلاحها على حدة، وقد تدخل الساحة حاملة شعاراً أخاذاً مثل "الحاكمية الإلهية" دون أن تعنى بدراسة المضامين العملية له والوسائل التي يمكن بها تطبيقه وآثار ردود الفعل الخ.. ولعل هذه الدعوات "الشعارية" أن تكون أخطر وأسوأ الدعوات. وقد قتل أصحابها في القديم – الخوارج – بأيديهم الرجل الذي كان الرمز الحقيقي للحاكمية – وهو علي بن أبي طالب – وأفسحوا المجال

لمعاوية الذى جاء بالملك العضوض. وقد تعنى بالتدين الأخروى على حساب التدين الدنيوى .

لقد ضلت هذه الدعوات .. وأضلت .

إن دعوة الإحياء شئ آخر. إنها تعود بالدرجة الأولى إلى العقل، بينما تعود كل الدعوات الإسلامية الأخرى إلى النقل. وعندما أعملت العقل أنتهى بها إلى إيمان بالله يختلف عما جاء به علم الكلام الإسلامى. كما يختلف عن الموقف الأوربى السلبى الذى فضل أن يتجاهل أعظم قضية فى الوجود – قضية وجود الله – لأن العامة يمكن أن تستسلم إلى معيار الحواس، البدائى، الذى لا يعبر إلا عن طفولة العقل الإنسانى. فما دام الله غير محسوس لا يمكن أن تناله الحواس، فلا داعى للتفكير فيه، أما الفلاسفة الذين كان عليهم أن لا يستسلموا لهذا الفهم السقيم، فإنهم فعلا توصلوا إلى فكرة وجود الله، ولكنها كانت فكرة غائمة أثرت عليها الفلسفة المادية الغالبة على الفكر الأوربى وحكمها القصور البشرى الذى يعجز عن أن يتوصل إلى الصورة المثلى لله، ولابد أن يأتى بها وحى من السماء، ولما كانوا فلاسفة وليسوا أنبياء، فقد وقفوا فى منتصف الطريق .

وفى الوقت الذى رفض فكر الإحياء الإسلامى طريقة ومنهج علم الكلام، فإنه وجد طلبته فى منهج القرآن الكريم وتلاقى العقل مع الوحى فى اعتبار أن القضية المحورية فى الإسلام (وبالطبع فى كل دين) هى الإيمان بالله. ومن أجل هذا جاء البند الأول من ميثاق دعوة الإحياء الإسلامى يبرز هذا الإيمان أولا وقبل كل شئ. ويبرزه بالصورة العقلانية / القرآنية. ويعتبره نقطة البداية وواسطة العقد فى الإيمان الإسلامى الذى يغطى الكون كله وليس الإنسان الذى يعيش على كوكب من أصغر كواكب الكون ..

وهذه الصورة المميزة للإيمان بالله هى ما تميز دعوة الإحياء الإسلامى عن بقية الدعوات كافة.. أوروبية. أو إسلامية.. وما يعطيها رشد الحياة وعمق الدين والتواصل مع الكون .

ومن خصائص دعوة الإحياء الإسلامى أنها لا تقتصر فى النظر إلى الدين على النظر إليه من داخله، كما تفعل بقية الدعوات الإسلامية فتحصر نفسها فيه، ولا تعرف شيئا عما سواه. إن دعوة الإحياء الإسلامى تنظر إلى الدين من خارجه أيضا [1] بحيث ترى الصورة الكلية للدين فلا تضللها آحاد الأشجار عن الغابة، وهى تصطحب معارف من خارج الدين أيضا. كما لا تفعل بقية الدعوات. ذلك لأن الحقيقة الكلية التى يمكن أن ترمز إلى الله أشبه ببحيرة كبيرة ينبع منها نهر رئيسى هو الدين، كما ينبع منها أنهار أخرى أقل حجما تحمل أسماء الفلسفة. العلوم، الفنون، والأدب، والاجتماع، والاقتصاد، وتاريخ الحضارات الإنسانية قديماً وحديثاً ونظم الحكم الخ.. وهذه جميعا تنبع من بحيرة واحدة، فإن كل نهر يحمل - بفضل مجراه الخاص. إضافة إلى المصب والإنسان وكل من يلم بما تأتى به هذه الأنهار ويعلم مضامينها فإنه يكون أقدر فهم الدين فعندما يتحدث الإسلام عن حرية الاعتقاد - فإن ما عرفه من تاريخ وحضارة ونظم الحكم وارتباطهما بالحرية سيعزز إيمانه بما جاء به الإسلام عن الحرية، وإذا علم تاريخ ووسائل استغلال المرابين للمدينين، وكيف أن الربا كان يؤدى إلى استرقاق المدين نفسه، فإن إيمانه بتحريم الإسلام للربا سيتأكد، وبالمثل فإنه عندما يعرف ما يؤدى إليه الاستئثار والاستبداد من الكوارث فإن تنديد القرآن بطغيان الحكام والفراعين سيتدعم، وبهذا يكون إيمان المؤمن إيماناً بصيراً وليس أعمى، عميقاً وليس سطحياً. وانعدام معرفة الشيوخ والفقهاء بهذه المعارف واقتصارهم فى فهم الدين على الدين نفسه ووحده جعل إحساسهم بكل ما فى القرآن من قيم كالحرية والعدالة الخ.. ضحلاً وسطحياً. فهم يتحدثون باستمرار عن أن القرآن كرّم بنى آدم، وندد بالاستغلال، ولكن هذا الكلام ليس له أى مضمون عملى لديهم، وهم أنفسهم يمتهنون كرامة الإنسان ويمارسون الاستغلال لأن

---

(1) ومستندنا "الشرعى" فى هذا هو أن القرآن الكريم قرن "الحكمة" بالكتاب كأصل من أصول الدين، ومن ثم فكل استهداء سليم ورشيد خارج الكتاب لا يعد شذوذاً عما أراده القرآن لأنه استلهام للحكمة التى نص عليها ..

المضمون العملى الذى هو روح كلامهم إنما يتعزز بفضل معرفة النظم السياسية فى العالم بأسره، وطرق الحكم وأنماط الحضارات وحركات الجماهير الخ.. وهم يجهلون هذا كله "لأنه يخرج فيما رأوا عن إطار العلم الدينى" .

ومن هنا اتسمت دعوة الإحياء الإسلامى بالشمول والانفتاح الذى لا يطيقه، ولا يقبله / الذين حصروا أنفسهم فى "نصوص الأسلاف" .

ولم يحدث أى فارق بين ما تقدمه العلوم والفنون والتاريخ الخ.. وما يقدمه الإسلام لأننا من البداية – وعلى نقيض مسلك الآخرين. عمدنا رأسا إلى القرآن الكريم. ولو أننا – أخذنا بكلام الفقهاء والمفسرين لوجدنا تعارضا كبيرا .

إن دعوة الإحياء الإسلامى عندما انطلقت من القرآن رافضة الالتزام بكلام المفسرين تراءت لها عظمة وروعة، وعبقرية القرآن وتفتحت آفاقه وعطاءه الذى لا يحد، وكانت تحجبه غشاوات مجلدات التفسير. ومن ثم أمكن أن تستلهم معظم مبادئ وأصول دعوة الإحياء الإسلامى من القرآن الكريم نفسه، ووحده. وأن تعززها بشواهد التاريخ .

وقد وجد فقه دعوة الإحياء. أن نصوص القرآن الكريم عن كرامة الإنسان، وحرية الفكر، والمساواة مع المرأة، تزيد عما وضعته المعايير الدولية لها.

* * *

بعد هذا المنطلق القرآنى وجدنا أمامنا السنة، وهى مادة الفقه الإسلامى ولحمته وسداه، وإليها أكثر من القرآن – يعود بناء الفقه الإسلامى والفكر الإسلامى عامة. وإليها ينسب الفقهاء معظم أحكامهم .

ولكن دعوة الإحياء الإسلامى لم تتقاعس، أو تستسلم فأبدعت تخريجين حلت بهما أزمة السنة المستعصية ..

التخريج الأول: ضبط السنة بضوابط القرآن الكريم. وهذا ما لا يمكن أن يرفضه أنصار السنة نفسها، وفي الوقت، فإنه عند تطبيقه بالفعل (وهو الأمر الذى أحجموا عن ممارسته) قد يستعيد ربع أو خمس ما جاء في الصحاح .

وترفض دعوة الإحياء الإسلامى كل ما يوجه إليها من ادعاء "هل خفي ذلك عن البخارى ومسلم واستكشفتموه أنتم ؟ " وهي تراه نوعا من الفرار من المقولة إلى القائل وشكلا من أشكال الإرهاب وتقديس الأسلاف الذى ندد به القرآن ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ .

نقول بلى، لقد تهيأ لنا من وسائل البحث والتمحيص وبفضل شيوع الثقافة والمعرفة ما لم يتهيأ للسابقين، ومن الطبيعى أن نصل إلى ما لم يصلوا إليه، ولا يمس هذا فى شئ إخلاصهم وتفانيهم وتقواهم .

التخريج الثاني: هو أن كل ما قاله أو فعله الرسول خارج الإطار القرآني إنما جاء بوحي سني، أريد به البقاء ما بقيت الدواعي والأسباب دون أن يكون له تأبيد وحي القرآن .

ولم تبدع دعوة الإحياء الإسلامى هذه الفكرة أو تخترعها من تلقاء نفسها أو بحكم هواها، ورغباتها ولكنها بنتها على مقدمات ثابتة هى :

1. أن القرآن الكريم أغفل ذكر تفاصيل عديدة سواء بالنسبة للشعائر من صلاة أو زكاة أو بقية فرائض الإسلام الخ.. وبالطبع فإن إغفاله هذا لم يكن نسيانا.. ﴿وما كان ربك نسيا﴾. ولابد له من حكمة ..

وما نفهمه من هذا هو أن القرآن الكريم أراد للكليات الكبرى التأبيد، أما تفاصيل هذه الكليات فلم يرد لها التأبيد ولو أراد لذكرها .

٢. لما كان من الضرورى تحديد هذه التفصيلات فإن القرآن وكل تبيانها للرسول ﴿.. لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ .

٣. قام الرسول بهذه المهمة لا من تلقاء نفسه، ولكن طبقا لوحي سني يختلف في طريقته ومقتضاه عن الوحي القرآني الذى كان له طبيعة مميزة ومقتضى صارم هو تبليغ النص القرآني بحرفيته .

٤. في الوقت نفسه فإن الرسول نهى عن كتابة حديثه، وأمر من كتب شيئا أن يمحوه. وهذه قضية ثابتة لا يجوز التماحك فيها. فإن التدوين لم يبدأ إلا على رأس المائة الأولى للهجرة على يدى عمر بن عبد العزيز .

ومدلول هذه الواقعة أن الرسول نفسه لم يشأ لما أمر به من تفاصيل صفة التأبيد القرآنية، وبهذا التقى مع القرآن نفسه، وهو الأمر المنتظر.. فما جاء به الوحي السني يظل ما دامت الأوضاع تتحمله، وتتجاوب معه فإذا لم يحدث وجب العودة إلى القرآن الكريم لاستنباط أحكام جديدة تتفق معه، ومع الأوضاع أيضا ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾. دون أن يكون الداعي لهذا هو الهوى أو الاختيان .

وقد صرح بعض الفقهاء ومنهم السيد رشيد رضا، أن الصحابة رفضوا أن يجعلوا الأحاديث دينا عاما ودائما كالقرآن. وذهبت إحدى فتاوى الأزهر أن السنة لا تستقل بإثبات الإيجاب والتحريم .

بل إن هذا هو ما صرح به الرسول ﷺ في الحديث عن عوف بن مالك قال: خرج علينا رسول الله وهو مرعوب متغير اللون فقال: "أطيعوني ما دمت فيكم، وعليكم بكتاب الله عز وجل فأحلوا حلاله وحرموا حرامه" وفي رواية "خطبنا رسول الله بالهجير وهو مرعوب فقال: "أطيعوني ما كنت بين أظهركم وعليكم بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه" هذا الحديث الذى اجتمع فيه أربعة من الصحابة يروى بعضهم عن بعض ينبئ بأن

الرسول استشرف أن المسلمين سيحلون السنة دون أن يكون موجودا ليظهر ما تطرق إليها من خطأ أو نسيان أو وضع محل القرآن الكريم فتملكه الكرب[1] .

بهذين التخريجين لم تعد السنة عقبة فضلا عن أن دعوة الإحياء الإسلامي تجعل الرسول المثل البشرى الأعلى والأسوة لكل المؤمنين، وأنها تتمسك بما وضعه من تقاليد كرئيس دولة، وهو جانب يرى الفقهاء أنه ليس تشريعا [2] .

بهذين التخريجين لم تعد السنة عقبة فضلا عن أن دعوة الإحياء الإسلامي تجعل الرسول المثل البشرى الأعلى والأسوة لكل المؤمنين، وأنها – كما أشرنا إليه آنفا – تتمسك بما وضعه من تقاليد كرئيس دولة، وهو جانب يرى الفقهاء أنه ليس تشريعا .

* * *

بعد القرآن والسنة – وجدت دعوة الإحياء الإسلامي – أمامها التلال المتعالية، والمجلدات المتعددة من أحكام المذاهب وما وضعه الفقهاء على مدار ألف عام. ودعوة الإحياء الإسلامي تنحى كل هذا جانبا، لأنها لا تقبل أن يفكر الآخرون لها أو ترى الأمور بعيون ميتة، ولأنها تؤمن أن القرآن الكريم يحثها على الفكر، وعلى "ما أنزل الله" وليس إتباع الآباء والأسلاف. فهؤلاء الأسلاف رغم تفانيهم وإخلاصهم – لم يرزقوا الكمال .

ولا تجد دعوة الإحياء الإسلامي حرجا فى أن تعلن أن <u>الفقهاء عندما أجمعوا على النسخ في القرآن وعلى تحديد القتل عقوبة للمرتد كانوا</u>

---

(١) أنظر الحديث فى زيادات محاسن الاصطلاح على مقدمه ابن الصلاح للبلقيني تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن (دار المعارف بمصر) ص ٦٨٤ – والحديث أورده الهيثمي فى مجمع الزوائد ١٧٠/١ وقال رواه الطبراني فى الكبير ورجاله موثقون .

(٢) لا يتسع المجال للتفصيل وقد عولج الأمر فى الجزء الثاني من كتاب "نحو فقه جديد" وهو المخصص للسنة فعلى من يريد التفصيل أن يعود إليه. وكذلك فى كتابنا "الأصلان العظيمان. الكتاب والسنة" .

يصدرون عن روح عصرهم، والصناعة الفقهية التي وضعوها – ذلك لأنهم ليسوا معصومين، أما دعوى الإجماع فقد أنكرها الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما.

ولهذا فلا تجد دعوة الإحياء مشكلة مع التراث الفقهي لأنها إما أن تستبعده تماما، أو أن تستأنس به في بعض الحالات وفي جميع الحالات تضع فقهها الخاص .

وسنقدم هنا أمثلة توضح كيف أن هذا الفقه الجديد يحل العديد من أزمات المجتمع الإسلامي التي اعتمدت على الفقه السلفي. فقد ميزنا بين العقيدة والشريعة، وهو تمييز أشار إليه الشيخ شلتوت رحمه الله في كتابه "الإسلام عقيدة وشريعة" ولكن الشيخ شلتوت لم يذهب بهذا التمييز إلى منتهاه، وإلى ما يستتبعه، الأمر الذي قام به فقه الإحياء الإسلامي إذ وجد أن العقيدة لها هدف وآليات تختلف عن هدف وآليات الشريعة. فالعقيدة تتجه إلى القلب وتستهدف الإيمان وتستلهم الوحي ووسائلها قراءة القرآن وتدبره والقربات إلى الله تعالى .

بهذا الأساس لا يمكن للعقيدة أن تزج بنفسها في خضم الدولة، أو السلطة. إن مجالها الوحيد هو الفرد، وقلبه وكل توجيهات القرآن الكريم العقيدية هي إلى الأفراد. وإذا جاوزت العقيدة هذا النطاق الطبيعي لها إلى الدولة، أو السلطات، أو حتى مثلت نفسها في مؤسسة خاصة بها فإنها ستوجد الدولة الثيولوجية التي لا تكون دولة العقيدة [1] ولكن دولة الكهنوت، وهو أسوأ تشويه يمكن أن تصاب به العقيدة. بل ويقضي عليها كعقيدة .

إن هذا التكييف قد حل أكبر أزمة في مشكلة الحكم الإسلامي لأنه أبعد العقيدة عن مجال الحكم وحصرها في الأفراد، ولم يكن هذا تحكما أو هوى ولكن بناء على طبيعة العقيدة .

---

(١) والمصطلح نفسه سقيم، فليس هناك دولة للعقيدة ولكن يمكن أن نقول أمة العقيدة .

أما الذى يدخل فى مجال الحكم فهو "الشريعة"، والشريعة هى عالم العلاقات الإنسانية: أصحاب الأعمال مع العمال، الحكام مع المحكومين، الأغنياء مع الفقراء، الرجال مع النساء الخ.. ففي هذه العلاقات يكون الهدف هو العدل وتكون الوسيلة هي القانون، ويكون الفيصل هو العقل وبهذا يصبح "للدولة" الإسلامية في أحكامها طابعا عقلانيا .

وإيمان الأفراد بالعقيدة يتفاعل تفاعلا جدليا مع التنظيم العقلانى للدولة. فتطبيق الدولة للشريعة نتيجة إيمان الأفراد وطلبهم يكفل لهذا التطبيق الصفة الديمقراطية، والطبيعة العقلانية للشريعة تحمى العقيدة من تسلل الخرافة .

وفى قضية الفنون والآداب والتعددية بصفة عامة فإن فقه الإحياء عاد بها إلى الإنسان لا إلى الإيمان واعتبرها من حرث الدنيا وثمرة النفس الإنسانية بفجورها وتقواها. ومن ثم فلا تطبق عليها ضوابط العقيدة ولكن ضوابط الشريعة. على أن الاثنتين – العقيدة والشريعة – تحتفظان بمساحة كبيرة من الحرية، حرية الفكر والاعتقاد والتجليات الإنسانية التى تتمثل فى الفنون والآداب، والعقيدة نفسها تنص على أن عطاء الله تعالى ليس محظورا عن الذين يبتغون حرث الدنيا وأن حسابهم إنما يكون لله تعالى ليوم القيامة .

وبهذه الطريقة يمكن أن يوجد فى المجتمع الإسلامى صور عديدة من الفنون قد يستهدف بعضها إرواء الشهوات لأن هذا ما لم يستبعده القرآن من الإنسان وما ألهم الله النفس البشرية من فجور وتقوى ولا تحاسب هذه الفنون كما لو كانت نشاطا إسلاميا، لأنها نشاط إنسانى يعود حسابه وعقابه إلى الله يوم القيامة، ما دام ليس هناك إجبار على ممارسة هذه الفنون أو مشاهدتها أو الاشتراك فيها بقوة أو بأمر السلطة .

أما قضية الاقتصاد ومشكلة الربا المعقدة، فإن دعوة الإحياء رأت بنظرة واحدة أن كلمة "ولا تظلمون" بضم التاء" الأخيرة فى الآية ﴿فإن تبتم

فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾ يتضمن اعترافا بأثر التضخم وأن تجاهله يؤدي إلي الحيف علي الدائن وظلمه، والظلم كريه في الإسلام سواء كان للمدين أو الدائن، ومن ثم فليس هناك تحريم علي أكثر أنواع الربا انتشارا في عصر يجعل التضخم أمرا لازما .

وتوصل الفقه الجديد إلى نظرية تلاقي الحقوق والواجبات بين العمال وأصحاب الأعمال التى تحسم شافة تناقض المصالح والصراع الطبقي وتحوله إلي اختلاف حول قسمة العائد يحسمه العدل الإسلامي. كما لم تجد صعوبة في تفسير الآية ٢٨٢ من سورة البقرة تفسيرا يوجب ويقر الاتفاقيات الجماعية أو عقد العمل المشترك كما قد يطلق عليه فى بعض الحالات وهو جوهر النقابية [(١)] .

وقد عزز الفقه الجديد قاعدة "إساءة استخدام الحق" وما تتطلبه من ضبط لأنها تحقق العدل، وهو الهدف الرئيسي للشريعة، قدر ما عزف عن "سد الذرائع" لأنها تخالف أسلوب المقاصة الذى وضعه القرآن الكريم "إن الحسنات يذهبن السيئات" كما تستبعد توجيهاته فى التوبة والندم وغفران الله الذنوب .

* * *

هذا عرض سريع للطريقة التى توصلت بها دعوة الإحياء الإسلامى إلى أسسها، ووسيلة تعاملها مع هذه الأسس، وكيف أنها بذلك بددت الكثير من الشبهات وحلت الكثير من المشكلات التى أوجدتها تعقيدات الفكر السلفى والفقه التقليدى .

---

(٢) أنظر كتابنا الإسلام والحركة النقابية من ص ٨٢ إلى ص ٨٥ .

(٢)

نزعة الماضوية تتناقض مع الإسلام

لما كانت نزعة الماضوية هى أبرز ما تتسم به الدعوات الإسلامية المعاصرة، وأنها هى السمة المشتركة بينها جميعا. فقد رأينا أن نفرد لتفنيدها هذا الفصل الموجز لعله أن يشفى هذه الدعوات من دائها العضال، فمهما كان نبل العاطفة التى تشد هذه الدعوات إلى الماضى المجيد، ونحو القرون الثلاثة التى ارتأت أنها أفضل القرون، ونحو الشخصيات النابهة، العظيمة، والمباركة بصحبة الرسول، فإن التحليل العميق لهذه النزعة يثبت أنها ليست من الإسلام، بل إنها تناقض الإسلام .

وتناقضها مع الإسلام يتأتى من أمرين :

الأول: أن الإسلام يمثل المستقبلية فى حين أن هذه النزعة تمثل الماضوية .

الثانى: أن الإسلام يمثل الموضوعية، وهذه النزعة تمثل الذاتية .

وفيما يلى تفصيل هذا الإجمال ..

المستقبلية والماضوية :

يغرس الفلاح البذور فى الأرض ناظرا للمستقبل الذى سيجعل هذه البذرة نباتات باسقة، وهو لا يتصور أنه سيأكل منها فورا، كما أنه عندما غرسها فى الأرض حرم نفسه لذة استهلاكها، ولو أنه استهلكها لكسب

الحاضر وخسر المستقبل، ولحصل على حمل جوال من "التقاوى" بينما كان من الممكن لو زرع هذه التقاوى أن توجد له أطنانا من المحاصيل .

ويوفر التاجر من أرباحه فلا ينفقها على ملذاته، ولكنه يدخرها ويعيد استثمارها ويحرم نفسه مما توفره من استمتاع لأنه يعمل للمستقبل.. لا للحاضر.

الإسلام كهذا الفلاح والتاجر، إنه يجعل الحياة الدنيا بأسرها مزرعة للآخرة، فهو ينظر للمستقبل إلى مدى أبعد مما يتصوره كل المستقبليين، لأنه يستخدم الحياة الدنيا بأسرها كقنطرة للحياة الآخرة. بحيث تكون الحياة عملا ودأبا وكدحا وكفاحا ومجالا لأداء الصالحات واجتناب السيئات وهذا العمل والكفاح هو سمة كل الدعوات "المستقبلية" وتميز الإسلام هو أنه يجعل الحياة الدنيا بأسرها قنطرة للمستقبل فى حين أن الدعوات المستقبلية الأخرى تضع مدى محددا أو أن يسخر الأب حياته لمستقبل أبنائه .

ففكرة العكوف على الماضى واستلهامه مخالفة تماما للإسلام لأنها تحول دون العمل والإبداع وأداء الصالحات وكبح الشهوات وتوجد بديلا عن هذا كله فى التغزل فى هذا الماضى والإشادة به، أو تجعل الشحاذة منه عملا وحرفة، وهى فى أعماقها مرض نفسى تبرر به النفس عجزها عن العمل، وسيادة السلبية عليها، والإسلام فى مستقبليته لا ينظر إلى الماضى ولا يقدس القبور، أو يعلى بنيانها، بل يطمس معالمها، وإذا كان قد سمح بزيارتها فللاعتبار، وقد رأى أن التمسح بأركانها أو تصور أى قوة فيها نوع من الشرك والماضوية فى حقيقتها "قبورية" ووثنية ..

الموضوعية والذاتية :

والجانب الثانى الذى تتنافى فيه الماضوية مع الإسلام. أن الإسلام موضوعى. أى أنه يمثل الفكر، والمبدأ، والقيم فى حين أن الماضوية تمثل

التراث، والأشخاص، والممارسات. وفى حين أطلق الإسلام على اتباعه أسم "المسلمين" أى الذين يؤمنون بالإسلام وقيمه الموضوعية فإن الماضوية جعلت أصحابها يحملون أسم "السلفية" وما السلفية إلا أتباع السلف وطرائقهم ومذاهبهم وقد رفض الإسلام هذا وسمى اتباعه المسلمين أو المؤمنين ويتضح مدى الفرق في أن وسيلة الموضوعية هي الفكر، وأن وسيلة السلفية هي التقليد فالفرق بين الموضوعية والسلفية هو الفرق بين التفكير والتقليد، وقد يصور هذا الآيات العديدة التي تندد بالذين إذا دعوا إلى ما أنزل الله (الموضوعية) قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا (السلفية) .

ولما كان الإسلام محكما فى بنائه: كالجسد الواحد الذى يعمل كل عضو فيه لمصلحة الجسم كله دون أن تتنافر مهمة عضو مع مهمة بقية الأعضاء أو تعمل ما يسئ إلى الجسد بل تتلاقى كلها فى العمل له. فإن عزوف الإسلام عن الماضوية يتلاقى مع نفوره من الذاتية ويجمع هذا وذلك فى نهيه عن تقديس الأشخاص أو توثين الأشياء أو اتباع الأباء والأجداد. ومن دلائل ذلك تمجيده للمسجد وتنديده بالقبور وأمره بالتفكير ونهيه عن التقليد، وبهذا يكون الإسلام بمستقبليته وموضوعيته فى واد والسلفية بماضويتها وذاتيتها فى واد آخر .

وقد يجعلنا هذا نفهم كيف أن الدعوات الإسلامية عندما تمسكت بالماضوية كأحد رموزها ومقدساتها، فإنها فى الحقيقة كانت تؤمن بفكرة تناقض الإسلام ! وأن هذا من أكبر أسرار فشل هذه الدعوات وعجزها عن التعامل مع الواقع، ولو كانت الماضوية من الإسلام لكان يجب أن تنتصر ولو دعوة واحدة من هذه الدعوات .

والقرآن الكريم والسنة النبوية سواء فى رفض الماضوية وسلفيتها وذاتيتها لأنهما معا يدعوان إلى المستقبلية والموضوعية .

وأى شئ أكثر حسما وقوة فى التنديد باتباع الأباء والأجداد من هـذه الآيات .

- ﴿والذين إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله قالوا بل نتبـع مـا ألفينـا عليه آباءنا أو لو كان آباءهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾. {١٧٠ البقرة}
- ﴿قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شـيئا ولا يهتدون﴾. {١٠٤ المائدة}
- ﴿قالوا اجئت لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا﴾. {٧٨ يونس}
- ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾. {٤٠ يونس}
- ﴿لقد كنتم أنتم وآباءكم فى ضلال مبين﴾. {٥٤ الأنبياء}
- ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾. {٢٢ الزخرف}
- ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾. {٦٢ هود}

وكل الآيات أو الأحاديث التى تشيد بأشـخاص فإنمـا يكـون هـذا لأعمالهم وليس لأشخاصهم كما لا يضفى القرآن على أحد مـن المخلوقيـن عصمة أو توثينا وقد خص الله تعالى رسله بوحيه وتوجيهـه، ولـهذا جـاز للمؤمنين أن يكون الرسول أسوة لهم وهى صفة ليست لغيره، وعندما أمتـدح الصحابة فإنه أمتدحهم لأنهم ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهـم ركعـا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا﴾ وختم الآية ﴿وعد الله الذيـن آمنـوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما﴾ وكل آيات المدح فى القـرآن تنصب على ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ ولم يعـد الله تعـالى العـرب بوراثة الأرض ولكن "الصالحين" ولم يعط للأنبياء من سلطة سـوى التبليـغ والبيان وحذرهم فى عبارات جازمة تجاوز هذا .

وقال الرسول "مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره" بل لقد فضل الرسول ﷺ الذين آمنوا ولم يروه، وأورد الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عدداً من الأحاديث بهذا المعنى منها :

* عن أبي محيريز قال قلت لأبي جمعة رجل من الصحابة رضي الله عنه حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ قال نعم أحدثكم حديثا جيداً، تغدينا مع رسول ﷺ ومعنا أبو عبيده بن الجراح فقال يا رسول هل أحد خير منا ؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك قال نعم قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني .

* وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وددت أني لقيت إخواني فقال أصحاب النبي ﷺ نحن إخوانك. قال أنتم أصحابي، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني .

* وعن أبي إمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ طوبى لمن آمن بي ورآني مرة وطوبى لمن آمن بي ولم يرني سبع مرات [1] .

وهذا يدل على أن الإخلاف قد يكونون أفضل من الأسلاف وأن الذين لم يشاهدوا النبي وآمنوا به أفضل من الذين شاهدوه وآمنوا به .

فإذا قيل إن الرسول قال عن أصحابه "والذى نفس محمد بيده لو أن أحداً انفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه". فإن ذلك إنما كان لأن كفاحهم مع الرسول أدى لظهور ونجاح الإسلام، وهو – في النهاية – يصب في تيار المستقبلية والموضوعية .

---

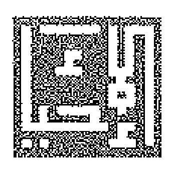
(١) أنظر الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني للشيخ الوالد رحمه الله ج١ ص ١٠٥ – ١٠٧ وقد أورد البخاري في خلق أفعال العباد رواية عن أبي جمعة بالمعنى نفسه .

فهرس

رقم الإيــداع بدار الكتب ٥٨٦١ لسنة ٢٠٠١
الترقيــم الدولى I.S.B.N. 977-5378-33-8



٢٤١ (أ) ش الجيش – ميدان الجيش
٥٩٢٥٥٤٠ / القاهرة



التعددية في مجتمع إسلامي

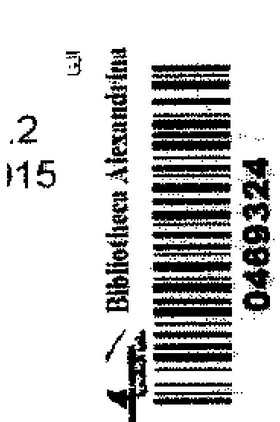
توهم كثير من الناس أن الأمة الإسلامية لما كانت أمة التوحيد، فإن هذا يفترض الأحادية في النظم، بمعني أن يكون هناك رئيس واحد، ونظام واحد، وحزب واحد، وصحافة واحدة الخ ..

ويذهب هذا الكتاب عكس ذلك تماماً ويوضح أن توحيد الله تعالي يستتبع التعددية فيما عداه. فالتوحيد مقصود به الله وحده، ومد معني الواحدية علي غيره يمكن أن يكون نوعا من الشرك، ويستشهد علي ذلك بعدد كبير من الآيات القرآنية التي تقرر التعددية وتتقبل الاجتهادات داخل الإطار الفسيح. بل إن انفتاح القرآن وصل إلي درجة الاعتراف بكل الأديان، وبكل الرسل وخص الله تعالي نفسه بالفصل فيما فيه يشتجرون ..

وتحت عنوان «الحكمة: أصل مسكوت عنه من أصول الإسلام يقرر الانفتاح والتعددية» يوجه الكتاب الانتباه إلي أن القرآن يدعو إلي «الكتاب والحكمة» ويفند ما ذهب إليه الشافعي من أن الحكمة هي السنة لأن القرآن يوردها في كثير من الآيات بما ينافي هذا المعني فضلاً عن أن السنة نفسها تدعو إلي الحكمة وتعتبرها ضالة المؤمن، وأن تقرير القرآن للحكمة أصلاً من أصول الإسلام يوجب استلهام النافع والمفيد من كل الثقافات والحضارات كائنة ما كانت وأن المسلم يكون أحق بها.

وفي فصل خاص يعرض الكتاب تصوره عن «التعددية في مجتمع إسلامي» فيشير إلي مبدأ رئيسي في الإسلام هو قبول الاختلاف وأنه لا يثير عداوة أو حساسية لأنه مما لا مناص عنه. ولأن الله تعالي خص نفسه بالفصل فيه يوم القيامة وأن الاختلاف غير الخلاف. فالاختلاف يوجب التعددية ولكن الخلاف يؤدي إلي الواحدية ثم ينتقل إلي العاملين الرئيسين في المجتمع الإسلامي إلا وهما هداية الأنبياء وغواية الشياطين.

وفي الفصل الأخير ضوابط التعددية يتحدث الكتاب عن أنه وإن كانت
من ناحية المبدأ ليست في حاجة لآليات تضبطها، لأنها -كالحرية- تض
بنفسها، إلا أن التجربة تثبت ضرورة وجود هذه الآليات التي تضع «قوا
وتكفل لها الاستمرار وتحول دون الانحراف. ويعرض الكتاب في هذا
ضرورة توفر حد أدني من الفهم الإسلامي الرشيد الذي يرفض التعصب
كما يعرض «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وهو يعالج هذا المب
معالجة تفصيلية ويقارن ما بين الآيات المتعددة في القرآن وبين حديث
منكم منكرا الخ .. المشهور ويوجب ضبط الحديث بالقرآن بحيث ينحد
باليد علي الحالات العاجلة التي تؤدي السلبية فيها إلي وقوع جريمة
المفهوم التقليدي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويورد رأيا للإما
حسن البنا أبداه عندما حطمت مجموعة من «مصر الفتاة» بعض الحا



دار الفكر الإسلامي

الثمن ٥ جنيهات